الطائر الحائر

جميلة محمد العلايلي

١٩٣٥

مطبعة وادي النيل بمصر

تحيـــة

أهـلا « جميلة » بالحياة كما رأت عينـــاك

فيهـــا معان تستطاب فأيها معناك ؟

حللت ألوان المحبة والجمـــال الآسر

وشرحت قصة طائر بين المفاتن حائر

ووصفت أطياف التناجى والعذاب القاسى

ومظاهر الحرمان والآلام بين النـــاس

هذى هى الدنيا كما صورتها للغـــافل

لهفى على الزهر الجميل من الهجير القاتل !

لا يسأل الفنـان عن آرائه ورجائه

بل يسأل الفنـــان عن إعجازه بأدائه

وأراك فاتنة العواطف بالخيال الساحر

أنفاس شاعرة لها أنفاس وحى الشاعر

احمد زكى ابو شادى

الإهداء

إلى ...

أبناء النور والحـــــــرية

ودعاة الاصلاح وأعداء العبودية

وربات الفن اللائى يوحين إلى كل معنى سام

تمهيد

زارتني منذ أيام صديقة تحبني حبا جما : زارتني وقد رسم الحزن العميق على محياها سمات الألم الدفين ، فاضطرني ذلك إلى تعرف دخيلة نفسها وإن كانت هي بعد أن هدأت بجواري وأنست بي لم تر غضاضة في أن تبثني خبيئة نفسها عل في البث ترفيهاً وارتياحا

وقبل أن أفضي اليك بحديث الصديقة ، أريد أن أصور لك في غير مبالغة صورتها لتبدو أمامك القصة في ضوء أوفى ، وصراحة أبهى . وإني لأستميحها العذر في اظهار سرها الدفين وعصارة قلبها الأليم وشفيعي لديها تلبية نداء الفن الذي وقفت حياتي ، وجهودي عليه

وان تثق برحابة صدرها ، وسماحة خلقها لكفيلة لي بأن أصرح بحديثها دون خشية عليها أو حذر منها

وورثت عن أبيها حب المرح والحياة والكبرياء والأنفة وقد تعجب كيف تجتمع الكبرياء الى السذاجة والهدوء الى الثورة والتحفظ الى الدعابة والثورة الي اللين . ويحسن أن تعلم أنها على جانب لا يستهان به من الثقافة الروحية وأن هذا الجانب الروحى يفوق علمها المكسوب وهى ذكية الفؤاد ناضجة الفكر نسيجة الخيال قوية العاطفة .

نشأت فى بيئة مصرية صحيحة وفى بلدة يقولون عنها إنها مدنية العلم والنور ، ولكنها ألفت الهدوء وأحبت الوحدة . كما عودتها أمها ، ولقد أهاب بها هذا الهدوء وهاته الوحدة الي الفكر والخيال . الخيال الذى حملها الى الطبيعة ، والطبيعة التى دفعتها الى حب الفن العتيد حباً ملك عليها حواسها حتى أصبح وكأنه شىء محسوس ملموس ترغب فيه وتنشده ، وقد سطا هذا الحب على الروح المادية فيها فقتلها فتعلقت بأذيال الجمال والحرية وان اعتقادها فى الزواج ليخالف ما تواضع عليه الفتيات جميعاً فهى لا تنظر الى الزوج من حيث غناه أو فقره ولكنها تطمع فى أن

يحبها الحب كله ، تطمع فى أن يكون ذكى العقل كامل الرجولة قوى الحجة حساس المشاعر قادراً على أن يهىء مستقبله كما ترجو هى له وما ترجو له الا أن يكون أعظم رجال العالمين وهى تعتقد أن فى قدرة المرأة أن تخلق الرجل خلقاً جديداً ، بل أنه ليحلو لها أن تكافح فى سبيل تحقيق مثله وإلا فما وظيفة المرأة فى المجتمع البشرى اذا كانت حياتها لا تتميز عن حياة الحيوان الولود ؟...

يجب أن يكون لها رسالة خالدة تؤديها عن طريق نفسها ان استطاعت أو عن طريق الرجل الذى قدر له أن يشاركها الحياة وعلى هذا الأمل ومن أجله تعيش فى محيط هذه الحياة .

أما بعد : فتلك هى صورة الصديقة بطلة « الطائر الحائر » ولعلها أروح مما ذكرت ، فقلبها الملىء بأسرار الكون لا يتيح لأى انسان أن يسبر كنهه أو يدرك مداه .

وحسب القارىء العزيز تعريفاً ببطلة القصة ، هذا الرسم الطائر بما فيه من خطوط وألوان وظلال .

١

قالت صديقتى :

دعتنى صديقة أعرف بميولي ، وأحب الى نفسى من غيرها الى نزهة خلوية وكانت طبيعتى في ذلك الحين خامدة بها عزوف عن المرح والعمل لذلك لم أر غضاضة في مرافقتها تلبية لمشيئتها فعسى أن أجد فى اجتلاء المناظر ومشاهدة مباهج الطبيعة الفاتنةما يرفه عن نفسى ويجنح بها الى حرية الفكر . ولقد كان بصحبتنا فى هذه النزهة أخوها وخطيبته ذهبنا جميعاً الي حديقة غناء اختارها الأخ لقلة اختلاف الناس اليها كثيراً ومع أنها كانت أشبه بالمهجورة فقد كانت علي احسن طراز للحدائق الغنـاء وكم فى الحدائق من معـان للجمال والسحر والفتنه ! فالطبيعة وحدها على ما أظن . هى مصدر الفن وحسبها أن توحى لنا بما وراء الجمـال الذى لا يدرك ولا يحد . الجمال الخالد فالسماء التى تعلو الطبيعة غيرها

في كل مكان نهى تنقل الينا رسالة مليئة بالاسرار ولو انها الت اسرارها مطراً لما كت هاته الأمطار . قطرات تبدو كأنها لا شيء ولكنها تملأ الأنهار لتروى كل ظامىء من الناس والحيوان والأطيار .

إن الطبيعة معجزه الله بلا ريب . معجزة صامتة الحانها ومعانيها في أرج نسيمها ، وفي عطر ورودها ولعلها تحيات مليئة بالبهجة والمسرة والأمل ترف علينا في شبه نسمات سيقت من قبل الأله الجليل لتزيد في نشوة الضاحك المجدود وترفه عن البائس المنكود .

أجل ترفه عنه بهذه الأشجار التي انكشفت عنها الطبيعة بين ساعة فرح تحت ضوء الشمس البهيج وبين ساعة حزن في كنف الظلام فجاء بعضه مزهراً بأغصانه وثماره وبعضه يماثل الحرمان في عمره ومآله .

وهكذا لبثنا بعض الوقت نمرح غير عابثين ، ونتسامر في أدب رزين ، ولقد أحسست أنا وصديقتي برغبة في الانفراد

تختلج بصدر الخطيبين فأفسحنا لهما المكان حتي يتمتعا بنسمات الحب السنى وليحتفلا على انفراد بساعات من عمر الخطوبة الهنىء . ورغبت الى صديقتي أن نختفى لنمرح كما يحلو لنا فى طلاقة الطفولة التي فاتنا عمرها وما زلنا نحن اليها ونرغب فيها . وهناك فى كنف بعض الأشجار وتحت ظلالها المتناسقة فى تآلف جميل بدأنا نتلهى بالتندر والمداعبة آناً وبالتحدث آناً آخر ولكن سرعان ما هرول الينا الخطيبان كعصفورين وديعين على وجه كل منهما ظاهرة تخالف الأخرى ، لقد كانت الخطيبة كثيرة المرح لينة الدعابة تلتمع فى عينيها أضواء الحب المتقد ويرف على شفتيها سحر بسمة تكاد تنطق بعذوبة الأمل الجميل وهى فوق ذلك على حظ كبير من سحر الأنوثة وجمالها كما أن السذاجة كانت تعلو جبينها وتبدو في ألفاظها لأنها لم تنل من التعليم قسطاً وفيراً

أما خطيبها فكان على عكسها ، فقد نال من التعليم أقصى ما يناله الشاب فى مصر ، حتى غدا ناضج العقل معتداً

بنفسه لا يلفت ظاهره عيون الحسان اللائى يألفن جمال الرجل وهو سريع اللفتة والنظرة هادىء النفس ، دائم الصمت والتفكير ، وقلما يؤخذ بظواهر الأشياء ، ولكنه عذب النكتة حلو الحديث ، يحب الطبيعة ويتحدث دائماً عن مفاتنها بلباقة فائقة ، وكم كان يتمنى أن يكون فنانا كما يعترف ، فيصور كل ما يحلو له ، ولكن الحياة كانت عليه جد ضنينة ، فطغت على مواهبه في بدئها على حد تعبيره ، وصرفته مرغماً عن نواحى الحياة الفنية الى أضوائها المادية . وها هو اليوم يعانى من كبت أحاسيسه ألماً مبرحاً لا قبل له على احتماله ، ولعل هذه الظاهرة الأليمة التى تملك عليه حسه هى من قبل حرمانه الفني ، ولم أجد مندوحة من تعرف ما صعب على ادراكه عن طريق الأخت فعند ما خلوت بها سألتها ، ما الذى حمل شقيقك على مجانبة خطيبته مع أنك قلت على ما أذكر مرة أنه خطبها عن طريق الحب ؟ فكيف تعرف بها ؟ فتلفتت قبل أن تجيبنى يمنة ويسرة كأنها تخشي

اباحة سر أو شبهه ، وبصوت خفيض كالحذرة قالت : فى مساء يوم كان أخى فى طريقه الى منزله وعلى ما يذكر كان الظلام شاملا والدنيا يكتنفها سحر الهدوء وبينما هو جاد فى طريقه حملت اليه أجنحة ذلك الهدوء صدى موسيقى سحرية خافتة حملته على مواصلة السير متتبعاً مصدره حتى بلغ نافذة ينبعث منها ضوء خفيف له روعة فنية ، استوقفه هذا المشهد فظل واقفاً ساهما يستمع الى الموسيقى بقلب ذاهل ولولا الشرطى الذى نبهه لنسى نفسه وما زالت اذكر صورته المهيبة فى هذه الليلة عندما دخل علينا فقد بدا أمامى كأنه خيف غريب يطوى بين جوانحه سراً غامضا ومنذ هاته الليلة تغيرت أحواله وأحب الخلو بنفسه ومع أنى كنت أرى فى عينه ما يضطرم في صدره ولكنى كنت لا أجرؤ على التدخل فى شئونه لأنه لم يعودنى ذلك ، وأخيراً طلب الى أمه أن تخطب له « بنت فلان » أعنى هذه الفتاة . وتم له ما شاء وكأنه امتلك ناصية الكون فكان أبداً فرحاً

راضياً عن دنياه ، وذات مساء ذهبنا جميعا لزيارة الخطيبة وكانت هذه أول مرة يلقاها الخطيب فيها بعد اعلان الخطوبة وطلب منها أخي أن تعزف له لحنا . فأبت زاعمة أنها لا تجيد العزف فظن أخي ذلك التمنع منها خجلا وحياء فألح وألحف وظل بها حتى حملها علي العزف . وما كادت تداعب اوتار المعزف بأناملها حتي تملكنا شبه ملل . لأن عزفها كان اشبه بنقر النحاس وفي هاته اللحظة جاءتها زائرة فانتشت العروس وقدمتها لنا قائلة : « معلمة الموسيقى » وطلبت ان تعزف لحناً ترضية للخطيب . وما كادت اصابعها تداعب اوتار المعزف حتي انتقلت بنا جميعاً الى عالم سحري فاتن واستطاعت بمهارتها ان تداعب قلوبنا جميعاً وبدل ان يستمع اخي استأذن وانصرف وحده وقد لمحت شبه غمامة انتشرت على وجهه لم افهم معناها . ومن هذا التاريخ عاد اخي غير مرح كما كان من قبل ، وتضاءلت مشاعره وتلاشت عواطفه او كادت ، ولزم الصمت الأليم ، وبات

لا يحدثنا عن الزواج والعرس كما كان يفعل من قبل .

بدت الحقيقة امامي رهيبة فاستويت بعد ان كنت مضجعة على العشب وقدتها الى مكان آخر بعيد ثم همست في اذنها : عله احبها من اجل الموسيقى . فلما اصطدم بالحقيقة تضاءل حبه لها ولعلها جادة في التعليم على ما اظن وغدا تكون عند حسن ظنه بها وخير له ان يفكر عن طريق عقله وقلبه ولا يترك حرية التصرف لخياله . وهنا لمحتهما مقبلين ، فتضاحكنا كأننا نتسامر في حديث لا شأن لهما به ، واستويت مسرعة أرحب بمقدم الخطيبة ولكنها قبل أن تجيبني خاطبني هو : لم تركتنا هناك وجئت الى هنا ؟ قلت : لنترك لكما مجال الحرية واحسبنا مخطئين في ان نرافقكما في وقت انتما احق فيه بالخلوة والانفراد . فعمر الخطوبة كما يقولون اهنأ الأعمار . ومن العبث ان يسهو الخطيبان عنه حتى يمر فلا ينالا منه ما يحلو لهما من هناءة ولم أكد انتهي من قولي حتى نظر إلى نظرة عميقة فهمت منها

بعض ما يعتلج بصدره وقد تغافل عن دعابة الخطيبة التى لمست كتفه فى رفق ونظرت اليه فى حنان ثم ابتسمت في براءة وخاطبته : إن الحق ما نطقت فلعلها مخطوبة و ... فقاطعها موجها الحديث الي : أحقاً ذلك ؟ فقلت فى حياء ، كلا . وكأن هذا النفى قد أرضاه فابتسم فى غبطة ثم نظر الى نظرة أخرى فهمت منها ما يضمره ولا يقدر على التفوه به وإن عين الرجل كثيراً ما تكون أسبق الى التعبير من لسانه وابتعد عنا قليلا فظنناه يريد أن يتمشى وحده ولكنه عاد وبيده زهرة بيضاء وفى ابتسامة غامضة قدمها الى فابتسمت كذلك فى غموض وقلت : أيخجل الرجل ، هأنا ذا لأول مرة أعرف ذلك ! أو تريد أن اكون واسطة بينك وبين عروسك ؟ ثم مددت يدى بالزهرة اليها . فقال : بل اقدمها اليك لتصفيها قلت : انظر الي عروسك تكشف لك ما خبأته الزهرة ! إنها تحاكيها . قال : لسنا فى مجال مناظرة ولكننا في مجال مواجهة قلت : أوه . فاتني أنها زهرة خالية

من العطر وعروسك وردة لها عطر ولعلك خشيت أن يسرى العطر من الورد الى الزهرة إذا لامسه وأنت تريد ان يكون العطر لك وحدك أليس كذلك ؟ ونظرت إليه كأنى أقول له : صدقنى ! قال ليكن ذلك أو غيره ولكنى أرجو ! قلت : أن تحفظ لك وردتك عبيرها .

فاغتاظ مني كما بدالى وقال بصوت متواضع : يا آنستي فابتسمت وقلت : لا تغارى ! أتحسبنى كذلك ؟ لا تظن ! فأسند ظهره على جذع شجرة وارفة كانت بالقرب منه ونظر محلقاً فى الفضاء ثم رد نظره عاجلا وقال بودى أن اكون طائراً وقبل أن أجيبه قالت الخطيبة : لو كنت طائراً كما تروم لرجوت ان تكون إنسانا فلم يأبه لردها وظل ناظراً الي مترقباً كلامى . قلت وأنا أنظر الى الخطيبة وأوجه اليها الحديث وهكذا كل ممنوع محبوب ثم التفت اليه وقلت : وردتك تعرف الحقائق فارتشف من منهلها لتصل الى محط الحكمة عن طريقها . فبدت على وجهه علائم عدم الارتياح وقال

بصوت خفيض وردتى . وردتى . فنظرت الى العروس وخاطبتها . الا تجيبين ؟ انه يناديك فتخضب وجهها ومالت فى دل فاتن ثم نظرت إليه فى استحياء يكاد يقتلها ، ولكنه تجاهل نظراتها وراح ينظر بعيدا كالطفل الذى يبحث عن نقطة ارتكاز السماء وكنت قد وليت وجهى وحاولت النظر بعيدا حيال خاطر طاف برأسى ولكنه انتشلنى من خاطرى بقوله أعتقد أن المرأة تحب الطيور كحب الرجل للزهور والورود . قلت وقد نسيت نفسى ، المرأة تحب الطير ، لأنه قادر على تبليغ الرسالة العاطفية عن الزهر والرجل يحب الزهر لأنه يألف ، صمت المرأة وحياءها ، قال ولكن هل كل الطيور محبوبة قلت قد تكون كلها محبوبة لأن لكل فتاة مزاجا خاصا ، فأنا مثلا أحب الطائر الفريد الذى يألف الفضاء الوسيع فيظل محلقا هائما لا يهبط الى الارض ، اما الطائر الذى يهبط ففى يقينى انه اضعف الطيور ، فبدل ان يجيبنى اشار بيده الى السماء وغمغم بكلمات خافتة لم ادركها ،

وتركنا وسار وحيدا فى طريق معوج ملىء بالحصباء ودقاق الحصا فاستوقفته عروسه وقالت هذه الطريق وعرة فأجابها دون أن يلتفت اليها إنه ليحلو لي ان أقطع الطريق الوعرة لأعرف معني الحياة ، قلت وأنا ما زلت فى موقفي ، ولكن الحياة بقرب عروسك أروع مما عداها قال حسبك وتخلص في غير لطف من ذراع خطيبته وعدا بعيدا ، فاقتربت من الخطيبة وهمست فى أذنها ، ألا تتبعين خطيبك ، إنه يدعوك فى حياء ، فتبعته دون كلمة تعثر فى ثوب الخجل والخيلاء ، ولكنها عادت مسرعة والدمع يترقرق فى مآقيها قلت ماذا بك ، قالت انه غاضب يأبى مكالمتى ، فقالت شقيقته عجباً ، علك أثرته عليك قالت لا ، جئته فوجدته مطأطىء الرأس ولما خاطبته تأفف منى ولم يجب ، قالت شقيقته هيا نذهب اليه لنتعرف الحقيقة ، ولما انتهينا اليه لم يأبه ، ودنونا منه فلم يلتفت وسألناه فلم يفه وتأوه فى سكون ، قلت وأنا احاول ان اكون كالطفلة البلهاء ، فى عينك دموع أتبكى ؟ عجباً

وقاطعتني شقيقته وخطيبته أمريض أنت ؟ قال ليتني وهو يحدق نظره في قلت إذن علام ؟ قال سلى الطبيعة تنبيك قلت ولكني أسألك ، وواريت نفسي خلف بسمة مغتصبة ثم استطردت ، كان في مقدورك ألا تصحبنا إن كان ثمت أفكار تلهيك وفي مقدورنا أن ننسحب ونترك لك هاته الطبيعة الفاتنة لتنعم بها بقرب عروسك الساحرة فتأفف وقال أما يكفيك ؟ قلت إن عيبي هو صراحتي ولا قدرة لي على ملافاة هذا العيب خاصة في مثل هذه الساعة ، وأنت شبه حزين وعروسك من فرط الحزن عليك تكاد تبكي وشقيقتك من هول اللوعة قد خانها النطق وما أنا إلا معبرة عنهما لا أقل ولا أكثر ، وأن الرحمة تقضي بأن ترعاهما وقد جئت بهما لترفه عنهما متاعب الحياة المنزلية الشاقة الخانقة فلماذا تبدل كرمك سخطا وإنه ليجمل بك أن تلاحظ عواطف الأنوثة الرحيمة فتكاف بسمة وقال أو تعرفين العاطفة قلت بلا ريب قال ليتك قلت هل أخطأك الحزن أم أخطأك النظر ؟ واحد

من اثنين ، اما أن يكون نظرك مخطئا فخاطبتني أو خاطرك طاف بها وظننتني إياها ثم حنوت على العروس وربت على كتفها وقد كانت تائهة فيما لاأعلمه ولا أدريه ثم قلت رفهي عنه أو لم تسمعي كيف يناجيك ويستعطفك عن طريق غيرك جفف دموعه بيديك الناعمتين فأنه يود عطفك فتعطفت عليه فى وداعة وطوقت عنقه بذراعيها العاجيتين ونظرت اليه فى ابتهال ولكنه صدها عنه بلا شفقة ، وغمامة الحزن تعلو وجهه دون كلمة ، ثم اسرع الخطى وذهب الى حيث لا ندرى . اخذتنا الحيرة فى أمره فالشقيقة ما بين مشفقة ولائمة والعروس من فرط الحزن والألم تكاد لا تعرف كيف تتحدث عنه أو اليه أما أنا فأدركت بعض ما يختفى وراء صدره ولكنى كنت حائرة فى أمره وخشيت أن تلمح على العروس او الشقيقة ظواهر الحيرة والاضطراب ، فتعمدت التجاهل والثبات ورحت أسأل العروس في رفق ، هل أسأت اليه ام تدللت عليه . فقالت لم يحدث ذلك ، ولن يحدث لأنى أحبه

فبلغ اعترافها من قلبي مكانا عميقا وحز في نفسي ووددت لو أفدي اعترافها بدمي فداء لتحقيق أملها وأهبنا بها أن تذهب إليه فعساه أن يهدأ ولكن سرعان ما عادت إلينا وقد فاض معين حزنها أكثر مما كان ، ثم ذهبت الشقيقة ورجعت وكان نصيبها من الهم نصيب عروسه أو يزيد وأخيراً ألحت على أن أذهب إليه فعساه أن يخجل ويحترم رغبتي فيصرح بما في نفسه أو يعود الى مرحه واقترحت عليهما أن يصحباني ولكنهما أبتا مدعيتين أن احترامه لشخصي قد يؤثر فيه ، وقد يكون عنده ما لا يريد أن يصرح به لهما خوفاً عليهما من الحزن واحتراماً لرغبتهما ذهبت إليه ولم اكد أقترب منه حتي هالني جلسته على هيئة حزينة ، وقد ارتسم على وجهه صورة الاضطرام المكبوت ولما لمحني حاول أن يواري حزنه وتكلف الهدوء ونظر الى باسما دون كلمة ففاجأته لقد جئت هنا الآن تحقيقاً لرغبة عروسك وأختك ورحمة بهما ، فأن الحزن لك كاد أن يهد قواهما ، ماذا دهاك على غير انتظار

وأنت خير مثال للعقل والرصانة فوقف واجماً ، وقبض على غصن قريب منه وداعبه متلهياً به عني على ما أظن قلت : شكراً لك . هكذا يكون الوفاء ، ألا هيا معي إليهما فلم يتحرك وظل صامتاً . وبدت على شفتيه بسمة يموج فيها شعور ثائر فاستطردت : تقدم فابتسم بسمة عريضة ارتفع صوته في نهايتها على نغم مرح وقال : هه أظننتني قد وقعت رغبة أن أعود معك إليهما ؟ قلت بلا ريب ! قال : لا بل أيقظني العبير الدانا فانتشيت ! عرفت من عينيه ما يرمي اليه ولكني تجاهلت وقلت ، ولكن هذا المكان أشبه ما يكون بالغابة فلا زهر فيها ولا ورود ولا رياحين بل كل ما فيها طيور تهيم هنا وهناك ، قال ولذا فضلتها عن سواها . قلت ولم اذن تحلم بالعطر ؟ قال لأني ارغب فيه ، قلت ولم تركته ؟ قال بصوت يحفه العجب أنا ! لقد عكست الآية أيحدث الجفاء من رجل قوي قادر ، إن جفاء الرجولة قسوة لا مبرر لها ، أما جفاء الأنوثة ففيه دلال مستحب يشفع له

فولى وجهه عنى شطر طيور كانت تحوم حول شجرة بالقرب منا ، وقال بصوت مرتجف خفيض ، أما وإنك تحجبين الحقيقة بنقاب الغموض ، فلتدعيني هنا اذن وحدى وأشار بيده فى بطء الى مكانه وحملق بنظره حيث الطيور فاغتصبت بسمة وقلت : أظنك ترغب فى مشاطرة الطيور الحائرة ، فاتجه نحوي بكليته وردد : نعم نعم لأنى واحد منهم قلت فى عجب ! أطائر حائر أنت ؟ فلوح بيده مؤكداً وقال بصوت غير رقيق طائر حائر هو أنذا ، قلت فى هدوء اخترت لنفسك هذا اللقب فأنا به من الآن أناديك قال اكون سعيداً لو فعلت قلت اسمع اذن ياطائرنا الحائر هناك حمامتك الوديعة تنتظرك فتعال إليها لتطيب لك الحياة . قال الطائر لا يفهم لغة البشر ، واحد من اثنين إما أن تخاطبيني بلغتى أو تدعيني أخاطبك بلغتك قلت ما دامت اللغة تؤدى الى الغاية المرجوة فلا مانع من استعمالها ، قال حسناً ! اذن تعالى نتفاهم ، قلت ولكني جاهلة لأني لم أعرف لغة الطير فحدثنى بلغتى ،

قال هذا عيبك ، تدركين وتتجاهلين كلانا حائر هكذا يبدو لى ، ولكن حيرتك مركزة على الرغبة وحيرتى مركزة على الاضطرار وشتان ما بين الحيرتين . أنا أحار فى تفهم العالم لأنى لا أفهمه وأنت تحارين بين ما تريدينه لنفسك وما يريده القضاء لك قلت هذا عيبى وعيبك أنت ، أنك تخلط بين الخيال والحقيقة فمثلا تخاطب عروسك عن طريق وتخاطبنى عن طريق عروسك فتأفف وقال لقد أطلت فيما لا أرجوه إن القلب الذى أرجوه يتجنبنى أفهمت ؟ قلت يالظامك إنها لم تضن عليك بما ترجو فلا تقس وهبها تدللت عليك ، أو ليس هذا هو حافز الرغبة فيك ؟ إن فلسفة الأنوثة تقضى على المرأة ألا تستسلم استلاماً مطلقاً بل تحرص على أن تأخذ اليوم أكثر مما تدع لتعطى فى الغداة أكثر مما أخذت ، فنظر إلى نظرة عميقة وبدا فى عينه التماع شعور ثائر صامت ثم أشار لى بالجلوس فأبيت أن ألبى هذه الرغبة ولكيلا أدع له مجالا فى الاسترسال قلت لو أنك كنت قد خرجت معنا

غير راض عن نفسك لاغتفرنا لك هذا الحزن ولا لتمسنا له تعليلا مريحا أما وأنك قد خرجت معنا خلى النفس إلا من سرورك فلا شك أن حزنك وليد الساعة ، قال هو ذاك ، قلت ولم ؟ قال ليس لي بذلك علم قلت عله الطرب ! الطرب أشجاك فأبكاك ! قال ليت ذلك ، قلت وماذا يهوزك اكثر من حب عروسك اللطيفة فتأوه وقال لا تحاولى قتلي ، قلت أو تشك فى حبها ما أقساك ! قال لا يهمنى ذلك ، قلت أتتعمد الخيال ؟ إياك ! ثم لزمت الجد ورجوت أن يسرع اليهما وأبديت أسفى لطول المقام ، ولكنه أبى وأصر على الانفراد بنفسه حتى أجيبه على سؤاله وأدركت من عينيه ما يجيش فى صدره وخشيت أن يضطرنى الي هتك كرامته فانسحبت وكأني لم أسمع له قولا ثم تركته وأسرعت اليهما فوجدتهما على حال من القلق الأليم ، وقد اضطررت أن أحجب عنهما الحقيقة لأحملهما على الهدوء الفكري وصحبتهما اليه وأنا أقول فى طريقنا اليه إنه يخلو بنفسه لأنه يشاء

أن يكون شاعراً وظاهرة الشاعر شذوذه احيانا وميله الى الانفراد بنفسه ليكيف ذهنه ومشاعره بجمال ما يبدو امامه ولما اجتمعنا به ظللت أداعب هذه وأضاحك تلك وأهيب به الى مكالمتهما حتي استطعت أن اعيد الى سمائهم ظل المرح الهارب ولكنه كان يفر من الضحك ويوارى نظراته خلف فكره الشارد ويعمد الي التجول بين الرياض النضرة وقبل ان يتخطى الوقت عتبة باب المساء رأينا ان نرجع حينما رأيناه بشعر بدوار فى رأسه ولكنه ابى إلا ان يودعني وحاولت ان اصرفه عن عزمه فأبى فى هدوء ولما وصلنا الى المنزل عرضت عليهم أن يستريحوا من عناء الطريق فأبى واصطحبهما وانصرف بعد ان حيانى تحية محتشمة ظاهرها الجفاء .

٣

خلوت بنفسي وتركت خيالي يجوب آفاق الآباد وأنا اشبه ما يكون باغفاءة الحالم ، فرأيت فيما رأيت من اطياف ، طيف الخطيب الذى أسميته كما شاء الطائر الحائر رأيته كما شاء ان اراه ورأيت بونا شاسعا بين صورتين ، بين الصورة التي يريدنى ان انظر اليها والصورة التي اراها بعينى رأسى ، صورته وهو حائر كما يظن وصورته وهو غادر كما اظن وشتان ما بين الصورتين وتساءلت ، أيمكن الفرد ان يكيف مشاعره كما يهوى ، ام ترى الأحياء تسير خلف اهواء القوة اللامعة غير المدركة مجبولة ؟ وافترت شفتا هاته القوة الهائلة عن بسمة عريضة فهمت منها اننا جميعاً عبيد المطامع تواتينا من قبل الغيب المجهول ، وبجانب طيف الخطيب تجلت لى صورة الخطيبة فرأيتها واقفة على باب الأمل البهيج تحلم بمستقبلها الهنيء ، وتتخيل ايامها المقبلة على

احسن ما تتمناه ، بينا القدر ينسج لها وشاحا غامضا قد يلقيه عليها وشاحا لم توحد ألوانه ولست أدرى إن كان ناعم الملمس أو خشنه يصلح لتجملها أولا يصلح ولكن الخطيبة تعتقد أنه وشاح السعادة والهناءة وحيال هذا الخيال انتابنى شعور غامض وساورنى هم لا اعرف سبيله ولا مأتاه ووددت لو اتيح لى من القوة ما يؤهلنى للانتقام من القدر الذى يجمع فى دقيقة بين قلبين على غير ارتقاب ويفرق فى لحظة ما يجمع بعد طول غياب ووددت ، ولكن هيهات ! ولم تمر ايام قلائل حتى جاءتني الصديقة حزينة كئيبة وراحت تقص على انباء اخيها ، وكيف جنح الى العزلة وحاولت ان تثبت الى من وراء حديثها ما يكنه لي صدر شقيقها حريصة على الا تنوه عن علاقته بالخطيبة وقالت فيما قالت انه يريد ان يتحرر من هاته الخطوبة ، لأن عواطفه لم توافق عواطف الخطيبة وقد ندم على انه اقدم على الخطوبة دون ان يتأكد من توافق ميولهما ورغباتهما ، وانه سار خلف خيال خاطىء .

كانت تتحدث بصوت حزين ، وكنت استمع اليها والبسمة لم تفارق شفتي بسمة السخرية والعجب حتى لمحت الصديقة بسمتي الفاترة التي لم تألفها مني ، فبادرتني لماذا تبسمين ، أهناك ما يدعوك لهاته البسمة الفاترة ؟ قلت اجل تصرف أخيك ، لقد جرى خلف خيال خاطىء كما تقولين ، ونسي انه قادم على دنيا جديدة واقعية لا خيال فيها ، لست افهم معنى لتصرفه هذا ، وعلام يندم ؟ اكان يظن أن من تجيد الموسيقى تجيد سياسة الحياة او انها من الجمال الخلقي والنفسي والجسمي بمكان ؟ قد تكون ولكنها ليست قاعدة على كل حال ، قد تظهر الموسيقى النفوس البشرية ، لست انكر ، ولكنها ليست دليلا على كمالها او نقصها . الا يصح ان يلعب الموسيقى بالنار كلعبه بالأوتار ؟ يخيل الى ان كل تصرفات أخيك غير مركزة على الفكر الصحيح ، وانه دائما يسري وراء خيال خاطىء ، خطيبته لا عيب فيها ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، ذات بشرة بيضاء ، ولها قوام أهيف

غض رشيقة رقيقة وديعة طيبة ساذجة طاهرة وأنا اعتقد ان هاته الصفات كفيلة بأن تحببه اذا ألفها في الحياة وأنا واثقة أن أخاك سوف يندم في الغداة اذا تخلى عنها اليوم ، لأن الحقيقة لا تلمس بالعين المجردة عن الخيال إلا اذا فقدناها وهو اليوم أسير أخيلة غير مدركة ، سوف يتألم عندما تجر عليه ذيلها ويواجه الواقع ، كانت تستمع إلى واطياف الغموض والحيرة والألم تبدو ملتمعة في مآقيها ، وشاءت أن تدافع عن اخيها ، ولكن رهبة الواقع خانتها فهزت رأسها في غير اكتراث ، كأن كلامي لم ينل من قلبها مناله ، وودعتني على أمل أن نلتقي قريباً .

وظللت طوال الليل أطوف بذهني عند محط الطائر الحائر ، راسمة لكل صورة معني ولكل معني قصة وصحوت مبكرة استلهم الفجر حقائق الوجود الذي يطوى في برديه نفوساً ما لها على نفسها من سلطان ، هاته النفوس التي تعتقد أنها على كل شيء قديرة وهي أضعف من الضعف ،

لأنها تعجز عن مكافحة أبسط النظم والعادات غير المشروعة وترضخ لأحكام ليس لها من الحق نصيب ، وتسير تحت تأثير شهواتها ومطامعها دون مكافحة وما هاته الرغبات والشهوات إلا رسول الفنـاء الذاتى الذى يصل بين الفرد والمجتمع ، وعلى غير عادة جاءنى رسول الصديقة يحمل إلى بطاقة ترجو فيها أن أزورها لأن مرضا قد طرأ عليها . فأسلمها الى الفراش ولم يسعني ازاء رجائها الا أن أسرع الى عيادتها ، والاطمئنان على حالها . فلما جئتها وجدتها حقاً أشبه ما تكون بالمريضة فبدأتها فى دعابة ، أو هكذا يحمل المرض الوجوه ؟ فابتسمت ابتسامة مرة ثم قالت بعد أن عانقتني عناقاً أحسست فيه بحرارة تجوب فى صدرها ، عل الجمال واتانى عندما رأيتك . ثم قادتنى الى مخدعها وما كدت أقترب منه حتي رأيت الأخ فى شبه نوم عميق يتأوه بين الفينة والفينة بحرارة وبين يديه ورقة فهمت من ظهرها أنها صورة ولكن وجهها مرتكز على صدره فلم أتبينها ودنوت

منه فهالنى ظاهرة المرض البادية عليه ، فقد اتشح وجهه بنقاب من الشحوب ، وهزل جسمه هزالا باديا وكأنه مريض منذ اعوام ، ولم استطع كبح جماح عواطفي فأشحت بوجهى بعيداً ، حتي أوارى مدامعى التى غامت بها عيناى وفتح المريض عينيه ، رافعاً الصورة اليهما فى شغف ، وقبلها فى لهفة حارة وقبل أن اتكلم نظر الى وقد تهلل وجهه بابتسامة طليقة وقال : ها أنت ؟ قلت نعم : أأنت مريض ، أو هكذا على عجل تمرض ؟ قال : ليته مرض وراءه أمل ، ولكنه عذاب وراءه فناء ، قلت وانا احاول ان اخلط بين الكلام والضحك الهادىء يالرجولة انت محط القوة تستسلم للاوهام قال : يالرجولة القوية ازاء الأنوثة الضعيفة ! قلت : ولكن الأنوثه لاتستسلم لأضعاف ما ينوء به حمل الرجل من امراض واهوال ومصائب وخطوب جسام . ولعل المرأة كالنسمة فبقدر ما هى هينة لينة فيها سر الحياة قال : اجل ! وبقدر ما فيها من عبير شذى فيها سم زعاف وعلى جناحيها يرتفع

العالم نحو العلا او يهبط الى الفناء ، قلت ولكنها لا تخرج سمها إلا اذا اضطرت للدفاع عن نفسها ، وبذلك تستطيع ان تسميه بالسم المرغوب ، قال ولكن ! ثم صمت ، قلت وما يتبع ولكن ، قال تفهمين وتعلمين وتتجاهلين ! قلت افهم انك مريض واعلم انك ستعافى ، واجهل تشخيص مرضك فتورد وجهه الشاحب وهز رأسه فى صمت ثم قال بصوت خفيض : مغرية خطيرة ! قلت ولكنه خطر لا يؤذيك قال : إنه خطر اهون منه الموت العاجل ، قلت شوهتنى أأكون وباء ؟ قال ليتك ، قلت اتظن اكثر ، قال : وليت ما وراء اكثر يصور حقيقتك ! ولو كان لكان لى معك شأن آخر ، قلت ولم أسمينا كل مالا يدرك غموضاً ، ولم تعلقنا بأذيال هذا الغموض ونحن نقضى عمرنا مؤملين راجين على ضوء هذا الغموض ، فأنا صحيفة من صحف هذا الغموض ولست وحدى اذ كل امرأة لها صحيفة ، وكذلك كل رجل وتستطيع ان تشبه الغموض بكتاب صنفه الخالق الجليل بلغة

غير مدركة لكل مخلوق صحيفة ، وعبثاً ما تحاوله المرأة من استقراء صحيفة الرجل ، او يحاوله الرجل من استقراء صحيفة المرأة ثم صمت وأنا شبه محتدة ، فقال وهل يحول الغموض عن ادراك الواقع ؟ قلت لا ! ولكن قد يتخذ الغموض وسيلة أحيانا للهروب من الواقع إذا كان لا يحمل ، قال : الآن فهمت ، قلت : أتمنى ؟ قال أنت ! قلت : هو أنا قال غموض مطلق ، قلت يحلو لي ، قال تعذبيننى ، قلت ما شاء الله ، قال إذن ، قلت استودعك الله وتهيأت للانصراف ولكنه استوقفنى وقال : اذن أرجوك ـ فأومأت برأسى دون كلمة ليتابع قوله ، فأردف ـ أن تترفقى بى ، ألا تسمعين صراخ قلبي ، وضجيج روحى ، آه لو استطعت أن أنتشل قلبي من بين جنبي ، لو استطعت لحطمته تحطيما لأستريح وأريحك قلت ويحك ، قال أتخافين على ؟ قلت الحياة تدعوك ويهمنى ألا تفقد الحياة رجلا عاملا نابهاً مثلك ، فقبض على يدى فى شبه عنف ، وناداني باسمى المجرد فى غير رفق وقال لا تحاولى

التمنت مرضاة لفريزتك ، قلت وأنا أسحب يدى من بين يديه فى هدوء ، ليس ثمت ما يدعو للتمنت ، ولكن مرضك على ما يبدو شبه وهم وأخشى أن يؤذيك ، قال أظنك أطلت قلت فى مكوثى .. أعتذر ، وهممت بالانصراف ، فدمعت عيناه ، وارتعشت شفتاه ، وأشار بيده فى بطء ليوحى الى بالبقاء ، قلت ولكنك تعب والحديث قد يضرك ، فلم يجب وظلت دموعه تنهال فى غير تمهل ، وكأنه خجل من نفسه فهز رأسه فى إباء وقال : إن ظاهرة المرض لا تبدو إلا فى دموعى وأخشى أن يكون ذلك من ضعف أعصاب النظر فتغافلت وقلت ولم لا تكون دموعك من تأثير خواطر قلبك عل عروسك لم تأتك اليوم .. علها فى طريقها .

وقبل أن أتم حديثى ، استلقى فى فراشه وغطى وجهه بالملاءة وشعرت من حركات جسمه الخفيفة التى تهز الملاءة أن عواطفه خانته ولم يستطع صدها ، فترفقت به وخشيت أن ينالني ما يناله ، فرفعت عنه الغطاء وربت على خده فى

رفق وقلت : ارحم نفسك ، فلم يفتح عينيه ولم يتحرك ، وعدت إلى ترفق وظللت أربت على خده وأدلك جبينه بماء الكلونيا اذ بدا لي أن الاغماء قد أصابه وأخيراً تحرك ورفع جفنيه فى بطء فقلت ارحم نفسك ، فأجابني بصوت خفيض رحمتك هي الرحمة الكبرى .

وقفت برهة ، وأنا أكاد احترق من فرط ما بي محاولة أن أكون قوية ، مقاومة جهدى هاته الثورة الكامنة فى صدري ، ولكن العاطفة لها حكمها الجائر ، فقد خانتنى فى النهاية ، ولم استطع كبحها فقلت بصوت مرتعش ؟ حي لو لم تنشأ لنفسك من قبل مشيئة قبل هاته الرغبة لكان لى معك شأن آخر ، ولما ترددت فى ترضيتك ولكن : ماذنبي والقضاء قضي لك بغير ما تريد ، وقد يكون قضى لى بذلك أتظن انه من الهين على ان اراك على هذه الصورة الأليمة العليلة ؟ ولكن الواجب ـ ثم صمت برهة لأستعيد قواى واستطردت : أجل الواجب يقضى على ألا اجاوبك عاطفة

بعاطفة إذا كان ثمت عاطفة واتتنى . على أنى من القوة بمكان
لذا استطعت أن أصارع ذلك التيار وقد صرعته ثم ابتسمت
فى دعابة ، وقلت : أنا قوية ، فكن قوياً مثلى على الأقل
فضحك ساخراً وردد هازئاً ، الواجب . الواجب ! أى
واجب هذا يافتاتى ؟ أى واجب يقضى بقتل قلب محب
وروح واله ، بل يقضى بقتل رجل كان فى مقدوره أن
يكون من خير الناس للناس ، وابر الناس بالناس انك تلبسين
مسوح الراهبة لتجيزى لنفسك حق النصح ، من أباح لك
ارتداء لباس الحكمة على حين كل خالجة فيك تحمل من
الخطر ما تحمل ؟ ها ها ها : الواجب ، الواجب ، فوق الحب
حكمة تتنزل من عند مليكة جديدة ، أو آلهة للشرائع العاطفة
هه : ومن أنت ، ومن تكونين ؟ ألست انسانة ، لك ما لها
من قلب ، وروح ، وشعور . واحساس ؟ لا ، انك لست
إنسانة إنك حجر صلد ، ولكن من الحجارة لما تتفجر منه
العواطف ، وإن منها لما يشقق فتخرج منه الرحمة ، وإن منها

لما يهبط من خشية الحب وسطوته . إذن من أنت ؟ أنا أجهلك بقدر ما اعرفك ، من انت أيتها الشيطان الذى يتراءى فى مسوح الملائكة الأبرار ؟ هه الواجب ، من علمك العزف على أوتار القلوب ، على حين صوتك يرتل أنغام القنوط ، من علمك اللعب بالنار ، فيتطاير الشرر ويحرق ألف قلب بار ، من علمك ومن علمك ؟ ثم تخاذلت قواه ، وتلعثم لسانه فلم يستطع ان يتكلم ، وكنت واقفة فى مكانى لا أجرؤ على النطق ولا أقوى على الكلام ولكنى استطعت بعد جهاد أن أتكلم بصوت خفيض كأنه أتى من وراء الأبعاد السحيقة ، فقلت : علمني ربى فأحسن تعليمى ، ولم أخضع لتعليم البشر ، وان ظنونى عبدة تعاليمهم علمنى ربى عن طريق إحساسى ومشاعرى ووجدانى قيمة الحياة ، وما وراء هاته الحياة على حين قد شئتم ان ترضخوا لتعاليم الحياة ، فالت تعاليمها بينكم وبين تعرف ما وراءها . علمني ربى التمرد ، وعلمتكم الحياة الرضوخ ! ولكنى أتمرد

على الباطل حتى ولو أحلته نفسي وقد أظلم نفسى أحيانا وأعذبها في سبيل الحق تحقيقاً لمثلى الأعلي . أما أنتم فقد تعلمتم الخنوع والاستسلام عابثين بالحقائق فى سبيل الأحلام . هذا موقفك مني ، وموقفى منك ، إنك تريد أن تحطم قلباً لتحيي قلبك وتقتل نفساً لتسعد نفسك : أنت الرجل وأنا أحاول قتل قلبي فى سبيل احياء قلب آخر وأشقى نفسى لأسعد غيرى شاعرة أن فى ذلك لذة كبري وراحة نفسية عظمى رغم ما أعانيه من الألم والحرمان . هأنت تخضع للعاطفة وتستسلم لأمرها فى ذلة وانكسار ، وهأنذا أصارعها فأصرعها وأغالبها فأغلبها . كل ذلك فى سبيل الواجب ان المعروف عن المرأة أنها عبدة لعواطفها وهذا وهم باطل إذا لمسنا قلب المرأة . إن المرأة لاتسير خلف عواطفها إلا اذا سلبتها الحياة منذ الصغر سلاح الكبرياء الذى تستطيع ان تصارع به أهواء الحياة اذا صارعتها . فأنا وانت وعروسك نمثل الأنسانية بأسرها . هذا يتعذب فى سبيل ذاك ، اذا كان كبير النفس نبيل القلب

كريم الروح ، وذاك يضحى نفسه فى سبيل هذا لأنه يرقب العالم من وراء الأفلاك على ضوء قلبه فيحس أن عظمة قلبه وقدرة نفسه فوق قدرة هاته العوالم ، وثالث يقيم لنفسه ذكرى على حساب أناس آخرين ، ولا حيلة له غير هذا التصرف الشائن لأن الحياة سلبته قوة نفسه ، وكلنا خادع مخدوع ، وهنا بلغ منى الألم غايته ، فهدأت قليلا ثم استطردت : لك دينك ولى دين ، أنت مستسلم وأنا متمردة ، والاستسلام والتمرد لا يتفقان انت تألف الحياة فى دنيا أخيلتك وحدها قانعاً بقوت ذهنك وانا لا يرضينى غير التجوال فى العالم هنا وهناك ، أسير على الربا المعطار وعلى الارض القفار ، وفى الصحراء الوحشة غير عابئة بما ألاقيه فى طريق من مخاوف وأهوال ، ما دام ضوء الله العالى ، ومثل الحق الأعلى رائدى أسبح فى الفضاء بروحى ، واجوب العالم بذهني ، وشتان ما بين الحياتين ، وهنا قاطعنى - وكأن كبرياء الرجولة سلطت أشعتها على هيكله ؛ فبدأ أمامى رهيباً - والآن ؟ قلت والآن يسرنى

أنك عدت الى نفسك ، راجية ألا تعود الي هتك عواطف أية فتاة وقتل مواهبها مرضاة لك ، وتزويق الباطل تحقيقاً لعاطفة هوجاء تثور فى اليوم لتخمد فى الغد ، ولا تحرم الحق لتنال ما تشتهيه . فاعتدل فى جلسته ، وبصوت فيه نغم الحزم الرزين قال : في مقدوري أن اكون كما تريدين أن اكون . واعتدلت كذلك فى جلستى وبصوت غير لين قلت : أريدك ان تكون زوجا كريماً مخلصاً نبيلا مفكراً حليما ، تقيس الحياة بمقياس عقلك وقلبك معاً ، فابتسم فى طلاقة وقال : هذا واكثر منه ، قلت دون أن ابتسم . وأن تحرص على حبها وتعمل على إسعادها وتقف حياتك من أجلها ، وانها لخليقة بكل خير ، قال : ومن ينكر ؟ ولكن أشعريني السعادة فوجهى الخطاب الى نفسك فلست غائبة . قلت أما زلت تحلم ؟ لقد ظننت انك سموت معى الى دنيا الواقع انا أعنى عروسك ، اما انا فغض الطرف عنى . فتجهم وجهه ثم نظر الى نظرة عميقة وقال ولكنى لا أحب إلاك فازداد

ألى ولكنى واريته وقلت فى هدوء فكر ! أنك الآن مريض او شبه ذلك ولا أحب ان أستغل ضعفك إحياء لحبى ، فأنى اقدر العواطف قبل وقوعها وأفكر فى الحياة بفكر أوسع مما تظن . خطيبتك خيالها لا يبرح ضميرى ، ولست من الأثرة والظلم والضعة بمكان حتى أقتلها فى سبيل عاطفة ترضينى أو تظن ان السعادة تطيب لى على حين ان هناك قلباً يئن ويتوجع من ورائي ؟ لا لا : لكنت كبرى الآثمات . فقاطعني : يالله ! إنك تخاطبين دائماً بين الواقع والخيال . وتشوهين الحقيقة مرضاة لجحودك يا ذات القلب الخرب قلت فى هوادة : أوهكذا تظن ؟ إن قلبي أعرف بالحب منك ولكنه حب غير ما ألفه الناس جميعاً ، إنه لا ينتمى الى رغبة او متعة او أمل محدود ، إنه حب وكفى ، وبحسبي ان ادركت الله عن طريقه وأحببت اهلى وأقاربى بوساطته ، وتعلمت الفنون ، وألفت الجمال على ضوئه ، فأنا احب ، بكل ما فى من قوة حباً شاملا سامياً غير محدود ، حباً يسمو على

النظم ولكنه لا يعصف بها ، والحب عندى ظاهرة من ظواهر الحق والفضيلة والجمال والصدق ، فأنا لا اعرف روعة الشيء الا اذا شف عن دخيلته ، وانا اذا أميل بفطرتي الى ناحية من نواحي نفسي فأنما أعني الحق ولا يستهويني الجمال او الحسن الا اذا اتصل بالطبيعة في اي كائن ، فكل من تلاعبت الصناعة بذاته فقد خلع جلباب الجمال عنه فأنت ترى ان قوة الحب فوق قوتي ، ولست من الكذب بمكان حتى ادعي انني اقوى من قوة الحب ، فأنا محبة ، أما أني محبوبة فلا اعلم ، ولكني قانعة بأن احب وحدي هذا الحب الذي لا يحد ولا يوصف . فليحبني العالم كله ، او فليبغضني وماذا يضرني ما دمت انا احب العالم كله ، واود لو اهبه بقدر حبي فضلا عميما . وانت رجل قدر عليك ان تلعب دورك على مسرح الحب بلباقة فائقة ولن يتم لك ذلك الا اذا احببت حباً مرهفا قويا ، حساسا ، ذكيا ، ساميا ، ابيا ، كريما ، عليا ، مضحيا ، نجيا ، حبا يضحي بكل شيء في سبيل مثلك العليا

التي تخذتها طريقك الى السماء فتفاخر الأنسانية بفضلك وتتباهى على الأجيال الخوالى . وهنا احسست ان قواي تخاذلت ومشاعري تنبهت ، فلم اعد قادرة على صد تيارها الجارف وخشيت ان يناله مني ما لا ارجوه ، فقد لمحت عليه ظاهرة الألم والاضطرام ، فترفقت به واستطردت : والآن احلت لك الحياة ما رجوته في ماضيك ، فكيف تحرم اليوم علي نفسك ما رغبته فيه بالامس . اردت ان تتزوج واخترت من بين النساء جميعاً فتاتك ؛ ولا شك انك حكمت عقلك وقلبك معاً ؛ فلماذا تفر منها اليوم راغبا في فتاة اخرى ؟ او تحسب انني امتاز عن فتاتك بشيء . لا تظن ! ان عروسك وإن كانت على قليل من العلم والثقافة إلا انها تحبك حبا يحوطك بالرعاية والوفاء ، إنها تحبك حبا قويا على الاقل . وانا اعتقد ان المرأة المحبة تخلق من هواها فردوسا خالدا ينعم فيه الرجل بما يرجو ؛ فوطن النفس علي ذلك ، وركز فكرك على هذا المحط ، ولا

تجنح بخيالك الى فضاء الوهم الفسيح ، وليس الزواج حلماً من الأحلام ، إنه حقيقة خطيرة ، إنه حياة قائمة بنفسها لها ميولها وتوافقها ، وأنظمتها وقوانينها ، فلا تظن أن حب الرجل وحده يكيف هاته الحياة ، فى مقدور المرأة ان تكيف مزاجك وتلطف مشاعرك ، وتنظم شئونك ، وتجمل حياتك ، بل فى مقدورها أن تخلقك خلقاً جديداً ما دامت تحبك الحب الكامل البرىء الخالص ، ولكن ليس فى مقدورك أن ترتفع بها الى سمائك إذا كانت تقتك الثقت البغيض . تنفس الصعداء ، متطلعاً الى السماء ، ثم ارتد طرفه اليه فى هدوء فرنا إلى ثم قال : ولكنك أبداً أمامى ، وأنا اجزم أنك تدركين حبى وتبادلينى إياه ، ولكن بينك وبين نفسك مهما واريت ، فعيناك يختلج فيهما ضوء حبك وكان صادقا بلا ريب ، لذا حاولت أن أتابع المرئيات ببصرى ، حتى لا يرتكز نظرى عليه ، ثم ابتسمت فى دعة وقلت فى تلطف : لاتحاول أن تشرح قلبى ، اذ من العبث

أن تعرف ما وراءه ، ولكن حاول إن شئت أن تعرف رغبتي أنا فتاة نهمة أتطلع الى ما وراء السماء ، وأنت تعيش بمالك وجاهك ومركزك قانعاً لا ترنو عيناك الى ما وراء ذلك ، وكل هاته الظواهر في نظري لا قيمة لها ، وقد رضيت بها الانسانية راغمة ، لأنها سلم الرقي العمراني المزعوم الذي يتطلع اليه ابناء المادة عبيد الرغبات والمطامع المحدودة ، وقد اكون أنا شاذة لأني أبداً اتطلع الى ما وراء نفسي ، وأترقب أشباح نهمي عن طريق أمل جليل لا يحققه غير طيف الرجل العبقري الذي أودع في روضته خلاصة المثل العليا ، أنا أريد الحياة على غير ما يريد الناس جميعاً ، لأني أريدها مضاءة بالحب الجليل ، والتسامح النبيل ، والبر العظيم ، والفضل العميم ، والجهاد الفائق ، والتمرد الصادق ، وقد يحلو لي العذاب في سبيل ذلك ، فقاطعني قائلا : يا أخت الخيال رويدك ، إنك تتكلمين بلسانك وحديث اللسان غير حديث القلب ، فعز على ان يشوه حقيقتي ، فقلت في غير لين :

لو كان للسانى الحق فى حرية الحديث لاستطعت أن استرضيك على الأقل منذ بدأت تضطرب في سبيل عاطفتك ان أبغض الأحاديث عندى حديث اللسان وهو كطلاء الوجه ، تجهد المرأة نفسها فى اتقانه ، وقليل من الوقت كاف لتشويهه ، وهذه الظاهرة لا تعنيني بقدر ما يعنيني مواجهة الواقع ولو كان أليماً ، فأنا أحب السير فى الطريق وحدى ولو كان لا حباً موحشاً مظلماً وقد يحلو لى السير فيه طويلا لأعرف حقائق الوجود ، لأن الحقائق تحتجب وراء المجهول لتحمل البشر على الدرس والبحث والتنقيب والجهاد فلأكن واحدة من هؤلاء الباحثات الدارسات المجاهرات ومحال على ما أعتقد ان أتلذذ بروعة الضوء إذا لمحته عن طريق غيرى ، بل إنه يسرنى ان أدرك الحقيقة وحدى عن طريق أفكارى وأحلامي ومواهبي ، وهنا كنت قد نسيته بأفكارى . فأدركت موقفى منه حيال نظراته العميقة الوضاءة فنظرت اليه برهة صامتة مستعيدة فكرى ، ثم

استطردت : أما وقد شاء الله لك عروساً من خيرة الفتيات جمالا وطيبة قلب ، وطهراً ووداعة فعش لها . وكان يصغى إلي بانتباه دون ان يقاطع ترسلي وما كدت اشير الى عروسه حتي صرخ فى وجهى كفى ، كفى ، أرجوك ، قد تركتها تركتها ولا بد ، قلت وقد اعترانى شبه ألم ممض ، وثورة كادت تصرعني لو لا أنى ملكت نفسى ، كيف تجرؤ ؟ إن كانت أساءت اليك ، فأنا شفيعها لديك ، تريث يا سيدى وفكر طويلا فعسي ان يعود اليك صوابك وعافيتك ، قال حسبك يا آنستى ولا تضيفى الى همومى هماً جديداً ، دعيني وحدى أتصرف كما يحلو لى ، وتخلى عن طريقي اذا شئت وكوني راضية او غاضبة ولا تجعليني هدفا لقنابلك . قنابلك أيتها القاتلة التى يحلو لها ان تبسم على حين عيناها ترسل إلى شرراً تكفى الواحدة منها لأحراقى ، كان يتكلم وقد ملكته كبرياء الرجولة ، وعزة نفسه ، وبدأ كأنه صحيح الجسم معافى فابتسمت فى هدوء وإن كانت عيناي تكاد ان تتفجران

بالدموع وقلت : يا له من حلم رائع إلى متى يواتيك وهمك عد الى عقلك إن كان شبه مس قد أصابه ولا تخلط بين الحقيقة والخيال ، فالنزوع الي الحق ولو كان مرا فضيلة ، فقاطعني صارخا : أنت التي تنزعين الي الخيال ، الخيال الطائش على ما أظن ، فجاهي الواقع على ضوء قلبك ، ولا تفكري بعقلك فقط لأن العقل وحده لا قدرة له على الحكم العادل . لم أستطع رد ثورتي النفسية وخشيت أن يلمح ظاهرته بادية على فأسرعت وتركته وأنا أردد ، يبدو لى أن لا فائدة من الحوار ، إن المرض جر عليك ذيل الوهم ، ولا فائدة وراءه ، أتنى لك الشفاء ، وتركته دون ان التفت الى رجائه ، وقبل ان أنصرف قادتنى شقيقته الى البهو وأنا أسوق قدماى فى شبه عنف لفرط ما بى من اضطرام وجزع وألم ولم استطع كبح جماح عواطفي فبكيت . اجل بكيت . ولست ادرى لم بكيت ، ولكن شقيقته جففت عينى بمنديلها فى رفق وقبلتني فى حنان ثم قالت بصوت خفيض : يا عزيزتى

إنه يحبك ، إنه يحترق بدموع قلبه وقد صمم عزمه على ترك خطيبته ، ولا بد من ذلك فلا راد لأرادته ، ترفق به يا صديقتى او على الأقل اعطنى على شبابه الغض وذهنه الخصب فالمرض يتلاعب بهما ، كلمة منك تشرح صدره وتطمئن قلبه . اجيبى بصراحة : لماذا تصدينه عنك ، الزواج مقدر عليك مهما قاومت رغبات الأهل والصحاب ، وماذا يعوزك ، مركز وثراء وحب ، إنه كفء لك يا عزيزتي . قلت لها وقد عاد الى هدوئى بل هو فوق مستواى إن شئت تصريحاً ولكنى لاأستطيع ان أساهم معه فى قتل نفس بريئة محبة وفية ، وهل هذا يرضيك ؟ لا تحاولى قتل البريئة معه . ما ذنبها ؟ ان قانون العدالة يقضى بقتل القاتل لجسم . فأى عدالة تنص على عقاب النفس الطيبة الطاهرة وقتلها ، وأي عقاب أرهب من الموت يستحقه ذاك الجانى ؟ لا ان القتل أهون فى يقينى فقاطعتنى : ليس ثمة قتل كما تتوهمين فسوف تتزوج بآخر قلت : من ادراك ؟ انها تحبه ، وصدمة كهذه كافية لقتلها

فانى اعرف خبيئة قلبها من عينيها الصافتين ، هذا ظلم ، لا لا يا صديقي كونى رحيمة ! قالت وقدطو قتني بذراعيها على اثر الدموع التى انهالت من عينى ، تصورى كيف أحرص على حبك وكرماتك ، وأصون ولاءك ، تصوري كيف أغار عليك من لداتك ، أنا الفتاة التي تقربنى منك عاطفة الحب النسائي ، لا أحتمل منك اى تجنب او جفاء ، فما بالك برجل يحبك حبا ، ساميا ؛ قويا ، زخارا ، وشتان ما بين حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل وهنا تذكرت الصورة فسألتها صورة من تلك التى كانت بين يديه ، فتلعثمت وقالت فى خفوت ، وقد ملكتها رجفة هادئة : صورتك . فهالنى الأمر . صورتى ! وكيف أخذها ؟ ومن اين ؟ فنظرت الي فى استعطاف وقالت : سامتها اليه وانا باكية خوفا منك ، وخشية عليه ؛ فاصفحى عني ، قلت فى حدة لا ! أتسيئين الى كرامتى ابتغاء مرضاة أخيك ؟ واستويت واقفة فى غضب فأجلستنى بيديها فى هدوء ولطف وقالت بصوت لين : عفوك

انه يحرص عليها أكثر من حرصك على نفسك ؛ انه يصونها أكثر مما تتصورين ؛ وما ضرك لو تداوى بخيالك على ورقة أيتها البخيلة ؟ ان عاطفته نبيلة ؛ وغرضه أنبل ، انه يحبك ويريد أن يتزوج منك ، فمن يعيب عليه ذلك . قلت فى صرامة : لن يحدث ذلك ، وكيف يهجر خطيبته بلا ذنب لها هل جزاء اخلاصها ووفائها ، وحرصها علي كرامته الحكم عليها بالأعدام ، أوه ! يا للأنانية كيف تطلبين منى شقاء غيرى لأسعاد نفسى ، وأنت بخلقى ومبادئى عليمة ، كيف أقتل قلبها لاشبع عاطفة قلبي ، يا للهول انها لجريمة كبرى ؛ وان عدها الناس دون ذلك . فغنت على وقالت : انه يهواك ، وقلبه لم يخفق لسواك ؛ وقد ادرك ان حبه لها كان خاطئاً فقلت بنغمة التهكم والسخرية : وسوف يحب غيرى فى الغد وسوف يعرف أن حبه كما تزعمين خاطيء ان قلبه يا صديقتى وأعني قلب الرجل ان شئت إيضاحا كالفراشة تحوم هنا وهناك ، وترف فوق الازهار مستمدة منها العبير لتحيا ،

أرأيت فراشة هائمة حول الضوء ؟ أو لم ترى كيف راق لها الضوء . وكيف ملك عليها حسها وكيف تهيم وراءه لما فيه من لذة لها ، ولا فرق عندها بين الضوء اللهبي ، وبين اللون الزهري فكلاهما أمامها سواء ؟ ولكن حسبها أن وراء الضوء ما وراء الزهر من متعة تحمله على ان يظل يرف حتى يسقط في النهاية حريقاً بعد أن تهد كيانه الرغبة المكبوتة الفراشة لا تموت بعد ان ترف على الزهر لأنها لم تنل من الزهر حظها المرغوب ، ولكنها تموت على أثر الطواف حول الضوء ، وسر ذلك الحرمان . أجل الحرمان هو باعث هيامه ، وسر غرامه . والحرمان كما أظن هو طابع الحب ، وعلى قدر نصيب الأنسان منه يكون حظه من الحب . فالحب يبقى ما دامت الرغبة باقية ، والرغبة تبقى ما دام الحرمان موجوداً ، المتعة تغذى ، ولكنها تقضى على الرغبة وهاك دليلا بسيطا ، فالجسم عندما يتغذى لا يشعر بجوع ، وإذا جاع شعر بحاجة الى الغذاء ، فحرمانه الغذاء

يدفعه الى طلبه وما يسرى على الجسم يسرى على النفس تماماً فلو ظلت عروسه تحرمه ما يرجو لبقى حريصاً عليها طوال السنين ، ولكنها بريئة النفس ساذجة إذ اندفعت وراء حبها وعز عليها أن يرجوها فلا تجيب ، لقد أساءت الى نفسها بقدر ما أحسنت اليه ! هلا تصدقين ؟ لقد ملأت روحه بضوء الحب ، وعلمته كيف يحب . وما هو إلا أن تعلم كيف يجوب الآفاق ويحلق بجناحى الحب فى السماء ، حتى حلا له أن يطير فى كل واد راجياً حياة جديدة ، وإن الرجل يحب ويهوى - لست انكر - ولكنه يحب نفسه يحب رغبته ، ويفنى فى سبيل العثور عليها . فاذا أنالته الحياة متعة الحب كما يروم ازداد طمعاً وجشعاً ، لأن النفس البشرية من رأيها الطمع كالمدة تماماً تشعر بالمرض ، وتكل عن الهضم وتطلب وتطمع ، وهكذا يظل يحوم وراء كل ما يروقه لينيل حظه مما يشتهيه ، وتتجدد رغباته وأمانيه وتتسع احلامه وأخيلته على طول الطريق ، وما أشبه الرجل المحب بالسكير

يبحث عن خمرة أيا كان نوعها فى كل مكان راجياً ان يوفق الى النادر النفيس ولكن من توفيق الأنسانية وسعادتها ، ان هناك مثلا عليا تحمل بعض الأفراد الممتازين على السمو وتدمير الأباطيل والعصف بالتقاليد الوضيعة سعياً وراء هاته المثل العالية ، فقاطعتنى ، ولكنك ظلمت أخى ، لأنه لم يختلط بها كما تزعمين كثيراً ومنذ عرف أنها لا تجيد الموسيقى كما كان يظن ، نفر منها واجتواها . فازدادت ثورتى وقلت هاته أغلوطة أخرى ، إذ من العبث أن يخلط الرجل بين الخيال والحقيقة فيعمل على تركيز حياته المنزلية على أحلام ذهنه . أتكون الموسيقى وحدها كافية لتشييد منزل عامر ؟ إن الموسيقى ظاهرة كالجمال والمال وما شابههما ، فلا يمكن بأى حال أن تقيم منزلا عامراً وحدها بل لا بد أن تركز هاته الظواهر على توافق الميول والنزعات وحسن السياسة المنزلية ، والتدبير والاقتصاد ، والعمل لصالح الوطن عن طريق الأسرة المنوطة المرأة برعايتها ، إلا كان يجدر به ان

يتأكد من طباعهـا وميولها ونزعاتها ، قبل ان يقيد نفسه برباط مقدس خالد ويحكم على نفسه بالشقاء المحتوم ؟ قالت : إن أخي لم ينعم بجوارها كما تتوهمين وقد عذبه الحرمان ولعل الحرمان جرعة من السم تميت من يتجرعها ، ولكنه الموت البطيء . قلت : أحيانا ! ورغم ما ينفثه في الصدر من هموم ، وخواطر أليمة ، فهو يخلق فى النفس قوة ممتازة تحمل صاحبها الى سماء الفن ، وقد يظل ساميا ممتازاً ، وقد لا يكون ، والحرمان على أية حال يفيد كثيراً ، ولعلك تعرفين أن سر خلود الحب وبقائه على مر السنين وهاجا لامعا يتعلق بقوة الحرمان وضعفه ، أتراه أدرك ميولى ونزعاتى مع أنه لم يختلط بي اختلاطا يبيح له ذلك ؟ كلا . إذن فهو يسير خلف خيال خاطيء . وشاءت أن تدافع عن أخيها فقالت : أجل انه يفهمك تماماً ، لأنه ذكى بصير ، ولولا ذلك ما أحبك هذا الحب العميق ثم هزت رأسها وأردفت لأول مرة ألمس القسوة عن طريق قلبك ، فيالك من قاسية

اجل أنت قاسية جدا جدا يا عزيزتى ، مع أنك ـ وأسفاه فنانة ! قلت وهذا عيبي ، نعم عيبي أننى فنانة ، ثم أكدت صدقيني إنه عيب لا شفيع له ، ودليل ذلك أننى أتخبط فى الدجى وحدى على ضوء هذا الفن ، بينما الناس يتمتعون بأمانيهم على حساب غيرهم ، ويرتفعون بأنفسهم على أعناق غيرهم ايضاً ، اما أنا فقد وهبت الفن امانى الحسان ورغبت اليه أن يمنحنى نفحة من النعيم الروحى ، ففتح لي رتاج ذاك النعيم ؛ ولكنه بعيد ؛ بعيد جداً حتى إنه ليجشمنى الوصول إليه كثيرا من العناء ولسوف أسير دائما حتى ابلغ غايتى أو أقضى دونها ؛ فليس تحفظى جموداً كما يبدو لك ولكنه فن من الفنون ؛ ولعلك تعجبين إذ أصور لك العيب الذى لا يروقك فناً محببا ؛ عيب فني ظاهره القسوة وباطنه الرحمة والسلام انه كبضع الطبيب يحملنا على العويل والصراخ ولكنه عويل الرحمة وصراخ الشفاء ، فأنا محبة ، ولكنى أحب حبا علويا شفافا نقيا ، جليلا أبيا ، وأطمع فى الحب الذى يزيد من

شعلة هاته النزعات فيزيدها توهجا وضراما . ارتاحت صديقتي لصراحتي ، فابتسمت في بساطة وقالت في سذاجة حسن من تحبين ، قلت أحب الروح العلوية التي تعصف بالغدر والخديعة وتتمرد على الحقد والأباطيل وأحب أن تكون صلتي بمن يحبني صلة فنية ؛ كالصلة التي تربط الفنان بإيحائه ، فاستلقت على ظهرها من الضحك وقالت : حتى حبك قاس كقسوتك ، قلت دون أن أساير ضحكها : وأنا أتشبث بأذيال هذا الحب القاسي ما دام يرتفع بي عن الأوضاع غير المشروعة لأتخذ منه قوة أصارع بها الأهواء والرغبات الباطلة وأذود عن نفسي كلما واجهني أحد المتطفلين أجل يا صديقتي أنا أعبد ذاك الحب الذي يعلم البشر العزف على أوتار الأمن والسلام ويحطم أغلال الحرب والخصام ، فتكون الأنسانية بفضله محطا للهدوء والأمان ، وكأن في ذلك استهتارا بعاطفة شقيقها فثارت على وصرخت في وجهي لو أنك غبية لعذرتك ولكنك ذكية ، ما هذه الفلسفة الجافة

ثقي ان أخي لم يحب سواك ، قلت محال ذلك وهي انه يحبني الآن ذلك الحب الزخار ، فسوف يلمس في الغداة حقيقة اخرى ، ويشاهد صوراً اروع ، تدفعه الى حب جديد ، وهذا بطبيعة التناسخ الذى تكشفت عنه السيكلوجية الحديثة لأن الجمال تنسخ صوره بعضها بعضا ، ولا يبقى فى بؤرة الشعور الا الصورة الواضحة القوية التى تتغلب على الصور الأخرى التى فى حاشية الشعور ، وليس معني ذلك دوام هذه الصورة فى بؤرة الشعور . كلا . ولكنها قد تضعف ويحل محلها صورة اخرى تغلبت عليها من صور الحاشية ، فتخرج الأولي الى الحاشية وهكذا ـ فالقول بأن هذا يحب تلك حبا ملك عليه قلبه ، ولم يترك مكاناً لغيرها ، ان ساغ أدبا ، لم يعد يسوغ سيكلوجياً . فصورتي التي تبدو أمام شقيقك فى هاته الأيام وضاءة فاتنة ساحرة سوف تتلاشى فى الغداة اذا ارتطمت أحاسيسه بصخرة سحر اقوى وفتنة أشد أو على الأقل اذا تكشفت له منى ناحية لا يحبها .

والآن دعيني احاول بلباقة صد تيار عاطفة اخيك لتأخذ بيده الى محط الراحة والهدوء والسعادة التي يتغافلها ونسعد بجانبه فتاة جديرة بالسعادة والهناءة ، دعيني امد يدى الصغيرة فى خفاء ورفق الى صدره باسم يدك لأنزع صورتي من بين قلبه ، ولأضع مكانها صورة عروسه حتى يراها بالعين التي لا يزال أبداً يراني بها ، ولا شك ان الله سيكلؤهما برضاه والآن اليك مهمة بسيطة فحاولى القيام بها من اجلى فعسى ثورة الحب أن تخمد عنده . تعامي الكذب من اجلي وإنه لكذب برىء ، قولى له إنى مخطوبة وإنى أهوى خطيبي وليس فى مقدوري ان احب سواه حاولي الافتراء ياصديقتى فقاطعتني ، أو تقتلينه راضية وانت التى وقفت ضوء قلبك وبر روحك ، وعطف نفسك علي البؤساء ؟ او ليس جديراً بذلك من سببت له البؤس والشقاء ؟ قلت : اما عن الشطر الأول فلا أنكر ، واما عن الزعم الثانى فأستنكر وهبي ذلك ، فالشقاء ليس معضلة ، إن من الهين ان يتلاشى

ويتناثر كالأشلاء ، ثم يحل محله السعادة والصفاء ، ومن أجل ذلك دعيني أتعمد الجفاء ، لأن الحقائق مشوهة ، ولا مندوحة من الهروب الى الخيال ، دعيه يتخيلني غير ما يرجو لينسى ، قولي له إنني فتاة جاحدة ، شوهى حقائقى وحطمى مطامعى ، وأفسدي فضائلي ، حاولى ان تقذفى بروحى فى بحر صاخب من الأوهام السقيمة ، وتعالى اليه بعروسه فى فضاء أبهج وأجمل ، أفعلى ذلك من أجلى وحرصاً على مستقبل الفتاة البريئة ليرعاك الله فى مستقبل أيامك ، إنى أريد سعادة أخيك وسعادة الفتاة ، ياصديقتى كونى مكانها وتخيلى مصابها لنفسك ، ثم حكمى قلبك وعقلك . فتأففت ودمعت عيناها وتعطفت على وقالت : ولكنك ستعانين ألم نفسك ، وألم غيرك فانى أعرف قلبك . قلت وأنا أحاول ان أخفي هاته الحقيقة ، سأظل حياتي انشد شعراً ، وأوقع لحناً ، وأرسم صوراً كلها تنتمى لحقائق الوجود في كنف ضوء الفنون وسأظل أقرع باب الحقائق بعصا الأحلام حتى تواتينى

المعرفة . فأعض عليها بنواجذى لأدرك المجهول على ضوئها وهناك عند محط الواقع ، أوقع ألحان الوجود لأسمع الكون أغاريد الخلود . وسمعت تصفيق المريض ، فأسرعت اخته إليه وخشيت أن يجهد نفسه ويغادر فراشه اذا علم بوجودى وقبل ان تعود كنت في طريقي الي منزلي ؛ بعد أن تركت إليها مع الخادم تحية المساء .

٣

سرت فى طريقي الى منزلى ، ونظرى يمتد خلف الطيور فى السماء حيث تطير ، وهي تنتقل من فنن الى فنن يا لله ! أهكذا تطير قلوب الرجال حول العذارى ؟ ولكن ما ذنب الرجل ، أيسأل عن هذا التصرف ؟ وهل هو تصرف خاطيء كما يعتقد العامة ؟ لا أظن إن الجمال فى كل مكان ، والله لم يوحد الجمال كما يوحد الأنسان حبه ، بل الله نفسه لم نحبه هذا الحب الجليل العظيم ، إلا من تنوع مآثره

الجميلة الرائعة الخالدة ، وأظن لو كانت هناك سماء فقط دون أرض او نبت او ماء ما بلغ حبنا الله ما بلغ بنا اليوم ، ولو كانت الأرض بلا سماء ما استطعنا ان ننعم بالحياة كما ننعم اليوم ، ولولا وجود الورود ما عرفنا جمال الزهور ، ولولا نعيق الغراب ما شجانا البلبل ، ولولا البغض ما عرفنا الحب فالرجل مجبول بفطرته على حب الجمال ، والمرأة هي محط ذاك الجمال ، فليحب الرجل كما شاء ، وليتنقل بروحه الهائمة من دوح الى دوح ، على شريطة أن يكون صادق الحب وأما ان يختلط بين الصدق والكذب . ليستغل الحب في تحقيق رغباته ، فتلك أغلوطة الحياة الكبرى ، أنه يسيء الى نفسه بقدر ما يرجو من إحسان ، لأنه لا يحكم قلبه وعقله في جمال ، ولكنه يجري وراء شهوة نفسه . والشهوة أبداً نزاعة الي السوء . أجل الرغبة تدفعه الى المجون . والمجون يهوى به الى الحضيض ولا خير في رجل يسف ، أجل ولو حكم الرجل قلبه وعقله ، لكان صادق الحب ، ومن صدق

حبه فقد حسنت دنيـاه ، ومن حسنت دنياه فقد كسب الحياتين . لبثت أخته تزورني من حين الى حين ، وهي في كل زيارة تحاول التغلب على بدموعها وحديثها وأنا اتكلف الجمود ، وأدفن المرارة ، وعولت على عدم زيارتها تمهيداً لما انتويته من قطيعتها ، وكم كانت تهيب بي ان أزورها وعبثاً ما أرادت ، ولست أنسى يوم جاءتني ، وقد اتشح وجهها بنقاب الهم العميق والقلق الشديد ، فبعد ان بكت طويلا استطاعت بعد جهد ان تنبئني بأن أخاها قد برحت به العلة حتى بات تحت رعاية الطبيب وحده . وقد رجتني ان أرافقها لأشاطرها العبء فقد اضناها جهد تمريضه ، وألم علته . لأن والدته عند ابنتها منذ أسابيع وتخشى ان ترسل اليها وهي مريضة القلب فتسيء اليها من حيث لا تدري ، ولم يسعني ازاء توسلها الا ان ارافقها ، فقد أدركت خطورة الحال من دموعها وحديثها ، وقد عودتني الصدق والصراحة ولم اكد ابلغ مضجعة ، حتى لقيني طبيبه بألم مرير ؛ وقـد تكلف

الابتسام ثم صافحني فى مرارة فبادرته سائلة : أو حالته خطرة ؟ فغمغم فى بأس وخفوت ؛ أتمنى له الشفاء على يديك وحولت نظري الى المريض فاذا هو فى غفوة عميقة تبدو على وجهه ظاهرة الداء المبرح فمددت يدى بهدوء لأجس نبضه ، ولكني اضطربت حينما سمعت نغما متقطعا خافتا يخرج من بين شفتيه في شبه كلمات متقطعة لا أواخر لها حبيبي ... تعالى ... لأراك ... ثم أموت ... سأنتظرك ... هناك حيث لا نظم ولا فلسفة ولا خوف فخانتني عيناى ، واشتد وجيب قلبي ولم استطع كبح جماح عواطفى ، ولعل الطبيب ادرك ذلك فنظر الى فى عطف ورثاء ثم قال : إنه يهذي ، قلت والدموع تنهمر ، أيطول ؟ فطمأنني وفى صوته رعشة الألم المكبوت ، وفى عينيه التماع الحزن والعطف والرجاء . وبعد ان عالج الطبيب اغفاءه تحرك وفتح عينيه ، وخشيت أن يلمح ظاهرة الكمد والحزن على وجهى فتواريت خلف الطبيب لأجفف دمعى ، واقترب منه الطبيب باسما وداعبه

في رفق قائلا : ألا تصحو ؟ إنها بجوارك قال من ؟ فهمس في أذنه من تحبها . فأرخى المريض جفنيه ولم يجب وتمشت حرارة الحياء في شرايين فابتعدت عنهما ونظرت الى الأخت نظرة سريعة فهمت معناها ، فاقتربت مني وهمست في أذني إن الطبيب صديق الأخ منذ الطفولة ، وهو كاتم اسراره فاطمئني اليه لأنه على خلق عظيم ، طيب القلب كريم النفس كامل الرجولة ، وسمعها الدكتور فابتسم في دعة وقال بصوت خفيض : يا آنستي ترفقي بي من أجل الواجب فقط ثم دنا من مريضه وخاطبه ... هيا ... تكلم ، فأجابه بلهجة متقطعة ، لقد قربت الساعة يا دكتور ، فقال الدكتور : ستعيش طويلا وطويلا جداً ، وسوف تنال حظك من السعادة التي ترجوها ، فاغتصب المريض ضحكة فيها رنين الألم الممض وقال : أحقاً أننا نلتقي بعد الموت بمن نحب . فربت الدكتور على كتفه وخاطبه في رفق : أوتذكر احلامك في الصغر ؟ لقد كنت بعيد النظر وما لك اليوم لا تصارع

رغبات نفسك كما كنت تفعل ، وقبل ان يجيبه المريض قلت : ما علته يا دكتور ؟ فالتفت الى وأجابني وعلى ثغره بسمة غامضة : اظنه تهاون فى رعاية نفسه ولأنه لم يألف برودة الجو ، فقد واتته حمى طفيفة قد تزول بعد حين ، ففرحت بيني وبين نفسي وابتسمت بدوري ، وشئت ان اقول له : ومتي يعافى ؟ ولكنى قبل ان أتكلم توسل الى ودفعنى برفق اليه دون كلمة فقلت وأنا أحاول ان أبدو امامه هادئة : أتمنى ان تكون بخير فأجابنى : ما دمت فأنا بخير قلت : ولكنك تمارض . أليس كذلك ؟ أأعجبتك راحة السرير فابتسم بسمة تنفس فيها آهة حارة وقال : من ادراك أقلبك ؟ قلت قلبي يحدثني أنك ترجو قال : وما ارجو ! قلت : عروسك . فعانقتني أخته وقالت رحمتك يا عزيزتى تذكري انه مريض وأيدها الطبيب بقوله ، ان الرحمة وليدة قلب المرأة فكونى به رءوفة عطوفة يا آنستى وقد استدعيتك لأستعين بك على شفائه وبرئه . فكونى عند حسن ظني

فيك وإني صديق حميم له ، وأعرف عنه ما يعرفه عن نفسه وبحق هـاته الصداقة أتيح لنفسي هذا التدخل بينكمـا ، فاعذريني يا آنسة قلت وأنا أتحاشى ان أرفع نظري اليه لكيلا يلمح ما يبدو في عيني من خجل وألم ؛ وأظن ظواهر ذلك علت وجهي فأحسست أن الدماء تكاد تنهمر منه وغمغمت في حياء . أطمئن . فابتسم شاكراً واستأذن منصرفاً على ان يعود سريعاً فيلقاني ، وأظنه تعمد ذلك ، وتقدمت الأخت من أخيهـا ، وداعبت خديه في حنو وهمست في أذنه بنغم مسموع : إنهـا بقربك فاصح - تشجع - إنهـا حزينة من أجلك ، فقاطعها ... آه إنها ... فتقدمت منه وعطفت عليه ثم قلت ترجو لك الصحة والعافية ، فتغاضى عني وخاطب أخته : إنها تزيدني مرضاً على مرض . فترفقت به وقلت : أهكذا تظن ؟ قال واأسفاه ، قدمت لي كأساً شفيفة ولكنها مليئة بشراب تكفي الجرعة منه لقتل أقوى قلب ، قلت ترفق بنفسك فان الوهم مضن ؛ قال أولست أنت ؟ قلت : بلى

قال : أنت وهمى قلت إذن دعنى أتقشع / قال وهم الخلود أعنى . فأنت باقية ما بقى الخلود ، قلت حتي فلسفتك تواتيك فى منامك . قال إن الفلسفة ادراك الحقيقة ، وأنت حقيقة إدراكى فى يقينى قلت : فكر فى نفسك فقط ، ودعك مني حتى تتعافي قال : إذا كان في مقدور الأنسان أن يصد عنه تيار عاصفة جارفة ، استطعت بدورى أن أصد تيار عاطفتك إنها عاصفة مدمرة أخشاها . فحنوت عليه وقد شعرت أن كيانى يحترق ببطء ، ومررت على جبينه فى صمت وكأنه أحس بحرارة حزني تسرى اليه عن طريق يدى ، فأغمض عينيه فى شبه غفوة وتنهد . وشئت أن أخرج به من صمته فقلت : أتراك تحلم ؟ ففتح عينيه ولعله شاء أن يجيب عنه دمعه ، قلت وأنا أجفف مدامعه ؛ وقلبى من فرط اللوعة يكاد يفر منى .. والآن أتدعنى ؟ وفى الحق لم أرغب فى الانصراف إلا خوفا عليه وعلى ؛ ولكنه قال بصوت حزين : الى أين ؟ قلت أنصرف ، قال ظننت ، قلت : وما

ظلمك ؟ قال أدعوك الى عالم احلامى فنحيا هنالك سويا نستضىء بضوء الكواكب ، ونمرح فى الفضاء غير المحدود ، وننعم بحياة الطلاقة والصفاء حيث لا قيد ولا عناء ، قلت بصوت يشف عن رغبتي ، بى ميل الى تحقيق ذلك الأمل ، ولكن صوت الضمير ينهاني . قال : لم توارن الحقيقة خلف الضمير قلت ما دمنا نرغب في السعادة المتدفقة من القلب والطمأنينة المستقرة فى الروح . فيجب أن نركز هاته الأمانى على محط الضمير . قال : يالظلمك ، ومتى اهاب بنا الضمير الى الشقاء قلت ، إنه لا يفعل . ولكن الأنسان يميل الى مغالطة ضميره مرضاة لرغبة يرجوها ، قال : وما دامت الرغبة بريئة طاهرة فالضمير يتعالى على أباطيل السوء . قلت . يسرنى انك تتكلم بلسان المعافى ، ولاشك أن انحرافك ولي عنك ، قال : ما دمت بجواري فأنا على أحسن حال ، قلت . تعبير لطيف تشوهه المجاملة بودى لو تتجنبنى .. لأعرف مدى قوة الرجل فتأفف وتأوه وقال : أف منك يا ... لآخر مرة أحب ان

أقول لك الحقيقة التى أعرفها ولم أعرف سواها هى أنى لا أحب إلاك . قلت : آه خانك عقلك ، أنسيت نظرية التجديد ؟ إنها تسرى حتى على العاطفة . آه عروسك ، ثم ارتعشت شفتاى على أثر مدامعى ، فعضضت عليهما حتى كدت أقطعهما من فرط الألم ، فتململ ملتاعا وهاجمته دموعه ، فأرخى جفونه وظل هكذا على صورة هادئة ، وأنا حياله جزعة هائمة بروحى حوله غير قادرة على صد اضطرامي وأخيراً استطعت بعد جهد أن أوارى همى وأداعب اصابعه فى هدوء وحنو حتي انتشى وفتح عينيه . فقال بصوت خفيض : أو أنت ؟ قلت : أو تشك ؟ قال بشغف : هيني ميثاقك . قلت : لك بعد شفائك . قال بصوت صريح قد شفيت . قلت : إذن غادر فراشك . قال بعد الميثاق قلت : هيه وسكت وأطرقت برأسى . وقد أحسست أن الحرارة تسرى فى وجهي ولكن شبه طيف وقف بيني وبينه يهمس فى أذني - حذار ! فاستوي فى جلسته ، وبدأ كأنه

تعافى حقا والتمعت إشراقة الصحة في وجهه وبلطف النسيم سحب يدى ورفعها الى فمه فشعرت بأن الطيف قد توارى بعد أن هبت على نفحة حارة من لدنه قلت وقد قطبت جبينى كأني غاضبة : أين حذرك ؟ قال أتضنين برشفة شفاء أحيا بها أيتها البخيلة ؟ قلت : إذن تعافيت قال : هو ذاك ! قلت ها قد اطمأننت فدعنى أنسحب قال : ولكن ارجو ان أظل حيا . قلت ما دمت تعافيت فالحياة تحبوك أوليست العاقبة هي الحياة ؟ قال أو تجهلين ؟ قلت قد اكون جاهلة ـ لا أدرى ـ فأرخى ذراعيه فى شبه استسلام ورفع بصره الى كأنه يتوسل وقال بصوت رزين ، الشفاء هو الحياة والحياة يا حبيبتى هى الحب وكأس الحب فاك فهبيني رشفة منه . قلت : ولكن الكأس لاشراب فيها فلا تطمع . قال أنا أعرف بدخيلة الكأس ! وفجأة دخل الطبيب ونظر الى المريض مستريحاً لحاله ولمح على وجهه بهاء الرضا وفى عينيه التماع الصحة فربت على كتفه وقال : أراك شفيت ؟ فأجابه

يا له من شفاء ! ولكن الناقوس دق والمصلي لم يتم صلاته فقال الطبيب مازحاً : ان كثرة التعبد كفر ...! وهممت بالخروج متعثرة فاستوقفني الطبيب بنظرة توسل وأشار الي في خفاء واقترب مني وهمس في أذني بحذر : أهنئك يا آنستي فقد برعت في تطبيبك وفي لحظات عالجت مرض أيام قدر لي أن اقوم بتمريضه فأنت له خير من ... وهنا قطع حديثه على إثر صوت الخطيبة وهي تخاطبه أنسيت مريضك يا دكتور ، وقد دخلت على غفلة ولم نشعر بها ثم رمقتني بنظرة عييت عن تفهم معناها وهممت ان أصافحها ولكنها غضت الطرف عني متشاغلة بخطيبها ؛ أذهلني ذلك وأشكل على الأمر وخشيت أن يكون قد جاءت من زمن ووقفت متوارية لتسترق السمع ... لابد ... لابد ... نظراتها تخيفني على أني حاولت ألا أبدو أمامها مضطربة فاغتصبت بسمة لها وقلت أن مريضك طلبك كثيرا وكان على وشك أن يبعث اليك رسوله فضحكت وقالت متهكمة . هل أوحى اليك ؟

ثم اتجهت نحو المريض وناجته بأعذب ألفاظ الجنان ولكنه لم يتحرك وأظنه تغافل ولبثت تداعب شعره بأصابعها وتعطف عليه وهو لاه عنها كأنه في شبه نوم او تناوم ، كانت صورتها فاتنة أعني صورة عطفها وحنانها على مريضها وقد جملتها العاطفة فبانت لناظري معجزة سحرية وكأن الطبيب أخذ بفتنتها وروعة موقفها فظل ساهما لا يتحرك ولا يتكلم يتلهى بالنظر الى المريض آنا والى محتويات الحجرة آنا آخر ولكني كنت ألاحظ في خفاء استراقه النظر اليها في عجب ولما عيل صبرها خاطبت الطبيب أراه نائما وأظن الطبيب كان أعرف بدخيلة أمرها فأجابها بصوت حزين يشف عن الحسرة الدفينة على حظها ... نعم أنه نائم فدعيه يستريح ولمحت في عينه ما يقوله لها لولا احترام عواطفها . اجل لولا ذلك لقال لها إنه لا يستحق رحمتك وعنايتك وحبك دعيه فانه يبغضك وانسحبت أنا دون كلمة وشاءت أخته ان تستبقيني ولكني رفضت بدعوى الحرص على كرامة الخطيبة ، وضرورة العودة الى

المنزل لشأن فيه . وعدت الى نفسى بعد أن خلوت بها فامست دخيلتهـا وادركت الحقيقة المخبوءة خلف كبريائي واحسست ان الحب قد سرت حرارته في شرايينى ورأيتى أسبح في عوالم مشرقة جديد فيهـا سحر وروعة وفيها فتنة وجمال . ولـكن كأن مبضعا كان يحز فى قلبي فيحملنى على التوجع فى خفوت ووددت لو أبيع نصف عمرى لشفاء دواء يشفى ذاك القلب الوجيع .. قد احببت ! يا للهول ! واخيرا وبعد طول عناء ؛ فكيف أتصرف ؟ هل اسير طوع الحب غير عابئة بغيري ام اطوى نفسى علي علتي لأقضى علي قلبي ليحيا غيرى ؟ وتنزل على شبه صوت من السماء رن فى أذنى لا تعصفى بحب الخير فى سبيل حب الذات ؛ وحيـال هذا الخاطر ارتكز فـكرى على محط عقلى وعلى ضوء الخير ؛ رأيت الحق يقضي بأن أنسى كل شيء ، عدا الشفقة على عاطفة الخطيبة . فقلت لنفسي : ولـكنه لا يحبها وقد يشقيها فقالت لي نفسى ولـكنها تحبه وقد تسعده فينساك . وهنا

صح عزمى على أن أكون القربان على مذبح الخير فى سبيل إسعاد أخت لى فى الأنسانية ! فتمز أيها القلب بهذا الخير الخالص واتخذه مسوانا لك على الشفاء !

٤

حبست نفسي داخل منزلى لا أرى أحدا ولا يرانى أحد لأن نفسى المهمومة واحلامى القاتمة حملتنى الى دنيا العزلة والانفراد حتى لا أشوه جلال هذا الصمت الذى يخيل الى ان راحة نفسى متعلقة به كما حملتنى ان أحنو عليها وأرفق بها فليس عندي من يرعاها وبعد ايام ثلاثة وصلتنى هاته الرسالة :

عزيزتى

(يا لصفاء قلبك !! أتعرفين الفتاة التى تساهمين فى سعادتها وتقدمين نفسك قربانا على مذبح إنقاذها) انها رمتك ورمت صديقنا الدكتور بما لا تحبين فقد قالت - جزاها الله - أنهـا دخلت لتعود خطيبها فوجدتك بقرب الدكتور وهو

يميل عليك ... والآن كوني عذيرتي على سرد ما تكرهين وشفيعي لديك استجابتك لنداء قلبك والعناية بأخي الذي يحبك ولعلك تعرفين بعد الآن من ذلك الحادث ان تلك الفتاة التي تضحين في سبيلها بقلبك ونفسك غير جديرة بالتضحية ؟

وبعد فتعالي الينا على عجل فأخي يدعوك ليل نهار ، وقد أمرني أمس أن أوصد عليه الباب وألا أسمح لعروسه بالدخول عليه بعد الآن . وقد آلمني أكثر أنها أساءت الى الطبيب من حيث لا تدري ، فقد شاء أخي ألا يعوده مع أنه طبيب الأسرة والصديق الوفي منذ الطفولة ، على أني واريت سوء تصرفه وأفهمت الطبيب أنه سيسافر عند أخته . ولعلك تدركين مبلغ حب أخي لك وكيف ضحي بصديقه في سبيلك يا عزيزتي حسبك ما فعلت وعودي الى الرحمة التي ما فتئت تغمر قلبك الطيب الرحيم . ودمت للمخلصة .

فيالهول ما رأت الخطيبة الكاذبة المجرمة .. بأي عين رأتني

وكيف أباح لها ضميرها أن تسيء الى فتاة دون جريرة اقترفتها قد يكون لها العذر وقد لا يكون . قد يكون لأنها مغبونة وقد لا يكون لأني أبداً أمامها حذرة . ولكنه الشك . الشك الذي يتلاعب بذهن كل إنسان وكم عذب من قلوب وضمائر ، وكم حطم من بنيان عتيد . بودي لو تقضي القوة الهائلة على الشك الذي يطغى على الحياة ويشوه الحقائق ... الشك يخامر كل ذهن ويصل الى كل قلب حتي الذهن الخصب والعقل الناضج . والشك يولد معناً ، وعلى حسب نزعات الأنسان يشتد او يضعف ، وعلى حسب الوازع يبدو أو يخفى . أنا لا أعيب على الخطيبة تصرفها لأني اعرف هم قلبها ، ولكن من يبرئني اذا ما وصلت هاته النقيصة الى سمعه ؟ وهكذا الأقاويل تجمل بالأصباغ وتحلى بالمحسنات الفكرية لتنال حظها في سوق الأباطيل !

(لقد قضيت بعض الليالي قعيدة هم ناصب وفكر شاغل) حتى جاءتني الصديقة يوما وأخذت ترجوني ان أرافقها لمنزلها

ولكنى رفضت ذلك في لطف ووعدتها ان أزورها قريباً ثم عاد بنا الحديث عن الخطيبة وتصرفها وواجب انتقامي منها لكرامتي المنتقصة وكانت الصديقة حانقة عليها ، فأخذت أقلل من حدة هاته القسوة ، وآلمنى أن تضيف قسوتها إلى قسوة أخيها وقسوة الأيام عليها وشئت أن أصور لها مبلغ أحقيتها فى تصرفها فقلت : إنها تصون حبها وتحرص على خطيبها وهى فتاة عادية تعلمت عن طريق الوراثة ، فكيف تحتمل أن يخون الزوج زوجه والخطيب خطيبته من اجل فتاة ثم مر بذهني خاطر غريب فابتسمت على مضض وقلت حسن يا صديقتي ما حدث ، إنها حسنة تسوقها الينا الأقدار لنتعاون بها على إطفاء جذوة حب أخيك المشتعلة فابثي له ما حدث وتعالي اليه بالخطيبة فى جو أنقي وأطهر ، دعيه يظن بى سوءا فقد يذهب ذاك المنطق بعاطفته فينساني وهذا ما أريده ... لقد ابتسم القدر للخطيبة بسمة عريضة أتمنى أن تظل وضاءة حتى تشيع على قلب الخطيب فيحبو خطيبته

بالحب والولاء . وظللت دائبة على الصمت لا يعنينى غير أن يمر اليوم فأحمد الله أن نقص من عمرى يوما ، ومللت كل شىء حتى الكتابة والقراءة والرسم والموسيقى وعدت ارجو ان يقيم بينى وبين الخطيب سدا منيعا ، وعلمت فجأة عن طريق الصديقة أن أخاها سيغادر هاته البلاد الى فرنسا للاستشفاء وقد صح عزمه على السفر بعد أيام قلائل وأهابت بى لتوديعه وبعد حديث ملح وعدتها بالذهاب على شريطة ان يكون ذلك على المحطة ليكون الوداع قاصرا على تحية عجلى فلا أضيف الى هموم الخطيبة هماً جديداً ولا أوقظ فى نفسه مشاعر قد تكون أوت الى الرقاد . وحان موعد سفره فتوجهت لتوديعه وراح يسعى الى متباطئا شاحبا ، ولما دنا منى تركتنى أخته ولعلها تعمدت فلم أحاول الفرار حرصا على كرامته وخشية أن يظن بى الظنون . صافحنى بحرارة وشد على يدى ليضع فيها قوة عاطفة ـ على ما أظن ـ ثم قال بصوت خفيض : طمأنينى .. أصحيح ما حدث ؟ قلت فى عجب

ماذا ؟ قال : لا تواري : أصحيح ان الدكتور ... فاغتصبت ضحكة وقلت : أوه أما زلت تذكر ؟ صدقني ان ذاكرتك قوية ... لقد اغتصبها وتمتع بها فيما أعتقد ! فبانت في وجهه سورة الغضب وقال : لا .. عيناك تكذبان لسانك ! قلت في بساطة : وماذا يهمك ... انت على سفر الآن فلا تهب وقتك لغيرك ودعني اقول لك : أتمنى لك الصحة والسعادة هناك . قال : آه .. إني غيور .. غيور من الخيال ؛ غيور الى أقصى حد ؛ ثم عض على شفته ومر بيده على جبينه متأففاً ثم أردف : لك الله ! قلت : لقد حدث ما حدث على غير ارتقاب . على كل حال كفاك نبل عروسك فوارى المرارة التى علت وجهه خلف بسمة قصيرة وقال : كل شيء فيك يؤكد براءتك . ثم سحب يدى فظننته سيصافحني ولكنه استطرد : اكتبي لى دائماً لأستمد منك قوة ترتفع الى السماء فيهدأ بالى ويطمئن قلبي .. اكتبي الى ولا تحاولي صد تيار عواطفي بالحذر والتحفظ فان ذلك يشوه جلال الذكرى

والحب . وكان يتكلم وكأنه يختطف الكلمات من أعماق قلبه ليسوقها الى هينة وكنت استمع اليه على حين ظل نظري عالقاً بالأرض ثم تطفر خواطري الى السماء فأتابعها ولم أستطع ان أرد احلامه الى حظيرة الصد لعلمي انه علي سفر وفي حاجة الى السلوي والعزاء ولما لم اجبه سكت قليلا ثم قال أنا واثق من انك ستحرصين على حبي وستكونين لي أليس كذلك ؟ قلت ... قال : تكلمي ، فلزمت الصمت ايضا قال : كلمة واحدة اريد ان أسمعها لأستعين بها على حكم الأيام على ، وهنا جاءته العروس والشحوب يغالب ألوان التجمل وقالت : انهم يريدونك ، وقبل ان يتكلم قلت : انه يحدثني عنك . فانزوت مني ونظرت اليه لتحمله على واقعها فلم آبه وأتممت : يوصيني بك خيراً ويحتم على زيارتك والعمل على سلوتك ، لأنه لا يطمئن الى أخته لكثرة مشاغلها المنزلية وتركتهما وسرت الهوينا وحدي بعد أن أشرت الى الصديقة ودق الناقوس معلناً قيام القطار فمال عليه الجميع يقبلونه

ويصافحونه والخطيبة تبكى من فرط التأثر ، وهو سارح ببصره ، يرد تحياتهم فى اقتضاب ، وأنا في مكانى ذاهلة ، لا أقوى على النطق والكلام وفى هاته اللحظة أدركت حقيقة تصرفى الخاطىء ، وتنازعتنى خواطر مؤلمة ، ووددت لو افديه بدمائى . اجل لقد سافر ، ولعل القدر شاء ان يسخر مني ، فسلبنى هدوء نفسى ، واطمئنان روحى ، وبات قلبي خافقاً وثابا ، كأنه يرغب فى الفرار الي حيث لا أدرى ! وفى دقيقة واحدة ، تنازعتني رغبات عديدة ، بين الحب والبغض ، والرغبة والكبت والمتعة والحرمان ، وظللت هائمة فى فضاء هاته الرغبات أحلق فى السماء آنا ، وأهبط الأرض احيانا ، أود كل شيء ومع ذلك بى عزوف عن أى شيء ! والعجيب ان الأيام راحت تمر بى متشابهة مملة وانية ؛ وشعورى يزداد قوة وغموضاً ولهفة ؛ وأنا احترق تحت نير مشاعرى وخواطرى ؛ وتبدو لى الأحلام التى ألفتها وضاءة ؛ قاتمة والأخيلة التى تراودنى متحركة باسمة ؛ ساكنة واجمة ، كما

كانت عواطفي احيانا تتلاشى خلف ضميري الذى يضيء أمامي وجه الحقيقة ، فأراها على غير ما عهد بها حزينة كئيبة وأرى طيفي فى زاوية القدر أمامها وهي حياله هادئة ، تود ان تخنقه ـ لو استطاعت ـ لتفسح لها الطريق ؛ ثم أري طيفي يتضائل امامى وأشعر أنه بات لا وزن له أمام ناظرى ، وأنه لا يمتاز بشيء عن الأطياف الوضيعة ؛ تلك التي تقيم سعادتها علي انقاض غيرها وتشيد أمانيها على تحطيم أمانى غيرها . هنا ادركت الحقيقة الواقعة الرهيبة ، وتحت تأثير هذا الادراك ظللت أبكي حتى استفقت الى نفسي ، ورأيت الحقيقة على غير ما رأيت ، رأيتنى لم أجن ذنبا وكل ما هنا لك أني اسير في طريق لاحب مليء بالأشواك وفى مقدورى ان أنزع عنى الرخاوة واللين ، فأمد يدي بقوة الى هاته الأشواك ، فأزيلها لأهيء الطريق للسائرة الضالة هناك ، وفى مقدورى ان أزيح من امامها ضباب خيالها ، لتبدو الحياة أمام ناظريها كما تحب وتهوى ، وفى مقدوري

أيضا أن أعيش فى سماء أحلامي لاهية بخيالى ، ما دام الله قد خلقنى طليقة الروح ، ثم يرتد إلى فكرى البعيد ، فأسأل نفسى .. ترى أتسعد الخطيبه إذا شقيت أنا ؟ ويفتر الغيب عن بسمة مريرة فيها التماع السخرية الخاطف ، ثم يهمس الي هذا الغيب بأن كلتينا ستعيش شقية ؛ فهو يحبني ولن أستطيع أن أبادله الحب ، وهى تحبه ولن يستطيع أن يبادلها الحب . ثم أسمع من وراء الأجيال صوت الشاعر يوقع على قيثارته لحنا شجيا محزنا ! وتفتر شفتاى أنا أيضاً عن ابتسامة ساخطة ، وأضحك ضحكا هو الى الجنون أقرب ، وتمر أمام خيالى صور النساء الضاحكات الباكيات اللاهيات ، فأرى شبه طابع على وجوههن هو بعد التفرس طابع الشقاء فتعود الى ابتسامتى الساخطة ، وضحكي الجنوني ! أمقدر لهذا البلد أن يشهد سعادة امرأة سعادة أكيدة ؟ أمقدر للتاريخ أن يسجل أنها وقفت في دنياها عن طريق قلبها ؟ لقد عاشت المرأة طوال الأجيال شقية بعواطفها ؛ راضية عن شقاوتها

فألى متي تخضع لنير عبودية التقاليد والأوضاع غير المشروعة ؟ أجل الى متى تخضع هذه المرأة التى قضى عليها قانون الحياة بسجن القيد ؛ فشوه محاسنها ، واستذل عواطفها ، حتي عجزت عن تأدية رسالتها عن طريق الكمال المطلق ؟ وفي الواقع أن صحو المرأة فى هذا القرن ، وانتشاءها بعد طول إغفاء قد فتح أمامها أبواب الحياة الصحيحة أمام بصيرة كل إنسان ، وشعر الرجل عن يقين بضرورة تحريرها تحريراً خالصاً للأمومة ذاتها ، فليشد الرجل إزر المرأة بقدر ما يطمع فيه من سعادة وليفسح لها الطريق ؛ لتخطو نحو العلاء ، محطمة بيسراها أغلال الشقاء .

بعد هاته الثورة النفسية الهائلة ، هدأت نفسى حيال خواطرى وكدت أنسي خواطري الأليمة ، وقد ظننت أن الخطيب تناسى ماضيه بحاضره ، فلم يكتب الى ، وسرنى هذا التصرف ، إذ أدركت أن الله قد حباه روح السلوى ولكن على غير ارتقاب جاءتني هاته الرسالة :

حبيبتي

(ما الحياة اذا خلت منك ؟ أنت ينبوع استمد منه الحياة فيحلو لي ان أعيش منه وله ، أنت دنيا ، وأنا عبد الدنيا وأسيرها ، أنت نور ، وأنا خلف النور أسير ، أنت إلهة الفن وأنا فنان أعبدك ، أنت قبس من عند الأله ، وسأظل أرنو للقبس حتى أنال حظي أو اهلك دونه ... أنت .. أنت ، ولا يفسر معنى أنت إلا أنت ! إن قلبي معبد أنت ناقوسه فاعزفي فيه أغاريد المحبة ؛ لأحظى بالجنة التي وعد الله بها عباده المقربين ! افتحي عينيك الجميلتين لأرى فيهما قلبي وهو يترنح كالثمل كلما بدا له كأس ثغرك الفاتن في عالم الأحلام إن الحياة هنا فرحة مرحة ، ولكنها لا تهز حسي ، أو ترفه عن نفسي ، لأن خواطري ومشاعري لا تستجيب إلا لك ولا تستمد وحيها الا منك ، وهأنذا قد بدأت أشعر بأن الحياة بعيداً عنك ؛ ضرب من السآمة والعذاب ، فترفقي واكتبي لي ، فعسى أن يتم شفائي ، فأسارع الي كنفك الظليل

ولك من الأشواق فوق ما تحتملين» أثرت رسالته فى نفسى حتى لأوشكت ان تفسد على كل ما انتويته ولكنى عدت فقلت لنفسى : حذار فأن ما قرأت ليس الا نزوة طارئة سوف تزول ؛ ثم عن لى أن أسلم نفسى الى الصمت ، فلعله ييأس ، فينصرف عنى الى خطيبته ، ورغم هذا الصمت فأنه دأب على مكاتبتى بمثل هذه الرسائل المشبوبة ، حتى اضطرنى الى الكتابة ، فكتبت اليه رسالات موجزة فاترة لا تخرج عن الاستفسار عن حاله ، وتنبيهه الى ألا يضايقنى بأحاديث الحب التى برمت بها واذا كان ولا بد فليكتب عن المرأة هناك والفن والحرية والعمل .

ولقد علمت من أخته انه لا يكتب الي خطيبته إلا فى النادر ؛ كما علمت أنه كتب الى والدته يحتم عليها ان تعمل على التحلل من هذه الخطبة ، وقد هالنى حقاً هذا النبأ فحاولت من ناحيتى ان أثنيه عن عزمه ؛ وهيهات ان أوفق ، فقد تغافل عن هذا الشأن فى رسائله الي ، كما نفذت والدته مشيئته

ولكن هذه الصدمة نالت من نفس الخطيبة فأسلمتها الى مرض شديد ، عانت فيه صنوف العذاب ، وألوان الآلام ولازمها شعور اليأس والقنوط من الحياة ، والأنسان الغرور فقبعت فى عقر دارها لا تزور ولا تزار ، وأخذ الناس يخلقون حولها الأشاعات ، ويرتجلون الأقاويل ! ويالامرأة البريئة من أقاويل الناس ! إن تجارة الأقاويل رابحة فى سوق الأباطيل وكأن النفوس البشرية جبلت على حذق هاته الصناعة ! أما هو فقد ظل يكتب الى مدى عامين ، فى عاطفة متأججة ، وأخيراً تعطلت رسائله دون ان أعرف لذلك سبباً ، ولكنى أيقنت انه شفى من دائه وأكد لى ذلك ، ما علمته من انه اعتزم العودة قريباً ، ولعب الشك دوره إلا انه شك ضعيف ، اذ خيل الى ان الرشد عاد اليه فعرف قدر خطيبته - رغم فسخ الخطبة - وكثيراً ما تعرف قيمة الشيء بعد زواله . وهنا حرت في تفهم عاطفة الأنسان او بالأحرى فى تفهم عاطفتي ، فقد انتابتنى حيرة غامضة

وبدأت أحس أني أحببته بقدر ما دفعته عن طريق ، وكأن لحظة صحو مرت بي ، فاذا بي أدرك ان القلب الأنساني دائم التطور . ولكن ماذا حدث ؟ أو ليس القلب يحيا ويموت ؟ ومتى استقرت النسمة فى مكان ؟ إن الفضاء الوسيع ، وإن الرياض المليئة بالأغصان النضرة ، وأشتات الطيور التى تزحم الفضاء ، طلباً لغصن ترتكز عليه فى اطمئنان ، بيد أن هناك فى زوايا قصية طائراً حائراً لم يجد فننا يتشبث به او يستريح عليه ، فليبق هكذا حائراً حتي يأذن الله له بالهداية والهدوء !!

٥

وجاءتني أخته ذات يوم منبسطة الأسارير وهي تقول : بشري ياصديقتي ! قلت : خيرا ، فقالت : سيعود أخي بعد أسبوع ، وحبذا لو تشاركيننا سرورنا . وهنا أحسست ان قلبي يخفق خفقات تؤذن بقرب حادث جديد كما انتابني شعور غامض ، يمتزج الفرح فيه بالألم ! ولكني بلطف اعتذرت عما دعتني اليه ، دون ان أدرى سبب هذا الاعتذار ، ثم اضطررت اخيرا أن اعدها بالزيارة في القريب بعد إلحاحها الشديد ، ومرت الأيام وأنا اتخيله آنا راضيا عن دنياه ، وآونة برما بها ، ساخطا عليها ، وقد وطنت نفسي على احتمال جفائه ، فاني اعرف انقلاب الحب الى قسوة او انتقام ، اذا لم ينل المحب رغائبه ! وسرت حرارة عدم الاستسلام فى دمائي فانتشيت اذ أحسست بقوتي وأيقنت ان المرأة فى مقدورها مصارعة الخطوب ، ومقارعة الاهواء

ألاان طيف الخطيئة تراءى لى واجما حزينا ، فتألمت له ؛ واشفقت عليه ، ولكني تمنيت ان يلهمه الله الصواب فيعود الى خطيئته ، فأكون قد أسديت الى كليهما يدا ، تنطق بقدرة المرأة على التضحية ومعالجة ما استعصى من الأمراض الاجتماعية ، كما ان فى وسعها ان تهيىء لنفسها حياة ، ترتكز على الصدق ، محطمة فى سبيل ذلك مطامع المتطفلين ، ورغبات اللاهين ، وان تسعد نفسها وشريكها وشعبا بأسره ! نعم فى مقدورها ان تفعل كل شىء اذا عرفت كيف تصوغ كل شىء صياغة جميلة بيدها الصناع ؛ ولكن أيكون حظ المرأة المجدة العاملة الوفية ، حظ اللاهية المتبطلة الغادرة ؟ وترقبت ان اسمع جوابا لسؤالى ، ولكني لم اظفر بغير الصدى ، وعدت الى نفسي اسائلها .... أو ليس بد من أن ألقاه ؟ فقالت نفسي : بلى ! لا بد ، قلت : ولكن أو ليس من الأصح الا أشعره باهتمامى حتى لا يتفتح قلبه عن عاطفة قد واراها الزمن ؟ فقالت نفسى : فى مقدورك أن

تقابليه في احتشام على صورة لا تبيح له الاسترسال فى أخيلته أو تعيده الى دنيا أحلامه الماضية ولكى يعتقد أن جفاءه الكتابى وسكوته الأخير لم ينالا من نفسك ، وسيان عندك كتب أم لم يكتب وأحبك أم لم يحبك بل تعمدى أمامه الاشتغال بأمر دنياك كأن هناك مالا يعلمه يملك عليك حسك

ووجدتنى إزاء حكم نفسى ساكتة ولأمرها خاضعة وبدت صورة الحاضر أمامى واضحة جلية ؛ فعاف قلبى حكم نفسى وصمح عزمى على عدم لقياه ، حتى لا أهيب به الى الرجوع لماض فات ؛ ثم جرت شواغلى ذيل التناسى على هاته الخواطر ؛ وكدت أنسى كل شىء حتى جاءت الصديقة على غير موعد وعلى وجهها كآبة الحزن العميق والألم الغامض والاضطرام العميق .

وبعد أن استقر بها المقام ظلت ساكتة على غير عهدى بها تحاول أن تنظر ، وعلى شفتيها تبدو معانى بعض كلمات تود لو تبدو ولكنها تختفى تحت تأثير مشيئتها على ما أظن ..

هالني أمرها وعجبت لحالها فأهبت بها لمصارحتي بما وراءها فأجابت وقد خيل الى أنها تصوغ الأجابة ، صياغة لا صرامة فيها : بى من الهم مالا أعرف سبيله ولا مأتاه ... قلت وأنا أحنو عليها : ولكنك تدركين بلا ريب موضع الألم من نفسك ، فدمعت عيناها ثم قالت بعد جهد بصوت خفيض لى صديقة لا تعرفينها ، أحبها صديق لشقيقها وبادلته الحب والوفاء ، وتعاهدا على الزواج لتوافق فى ميولهما وطباعهما ولكن حدث أن انكشف حبها للأخ قبل أن يتقدم الحبيب لطلب يد الأخت فثار الأخ وعظم عليه الأمر وظنه جرماً لا نهاية لفظاعته ؛ ورد الرجل خائباً وهدد الأخت بوعيد جائر مع ان هذا الأخ نال من عذاب الحب أقصى ما يناله امرؤ وكان يمثل دور غرامه على مرأى من أخته فأساء اليها من حيث لا يدرى إذ فتح أمامها باب العاطفة وأراها أضواء الحب وظلاله ، وأشعرها سحره وجماله ، وها هو اليوم ينكر ما للعاطفة من سلطان .

أدركت حقيقة قصتها من خلاصة حديثها وأحسست أنها تخجل أن تبوح بكل شيء وقرأت فى عينيها صراخ قلبها الهائم، وضجيج روحها ، وعذاب نفسها . فقلت مشجعة : أتراها أنت ؟ قالت بصوت المواربة : لا ... لست أنا ! قلت وأنا أحنو عليها : وهل الحب جريمة ؟.. أقسم أنك ! فارتاعت الفتاة وفاض بكاؤها واضطرت حيال عطفى أن تصرح بأنها هى ... قلت : وما نتيجة عسف أخيك ؟.. قالت والحزن يملأ صوتها : يحول بين الزواج ... قلت : وما وجهة نظره ؟ قالت : تبادل الحب بيننا فأنه يعترف أن تصرف صديقه خيانة له وتصرفى خيانة كبرى لا مبرر لها فضحكت في تهكم وقلت : يالله أيحلل الأنسان لنفسه ما يحرمه على غيره ؟ كان يجدر به أن يتعظ بنفسه .. فملكتها كبرياؤها ومسحت دموعها والتمع فى عينيها ضوء الارتياح وقالت فى عزم : لا فائدة من تعنته .. أنا له وهو لى ... مهما قامت الحوائل بيننا فلن يستطيع الأنسان ان يفرق بين

القلوب التى جمعها الله تحت شريعة الحب والوفاء .. ستتزوج ستتزوج ... أعجبنى فى الحق تمردها لأنه يثبت أن لها نفساً قوية حرة ولكنى واريت إعجابى وقلت : ياصديقتى رويدك ففى مقدورك أن تحملى أخاك على احترام ميولك وتقدير عواطفك بالصبر والأناة والحكمة ، وحاذرى ان تشوهى رغباتك بتصرف لا يرضيه ... أنا واثقة انه سيخضع لك فى النهاية ويحقق أمانيك ... علها تجربة يريد أن يختبر بها قوتك وأرادتك فكونى قوية أكثر مما أنت عليه الآن .

وهنا شئت أن أخرج بها من دنيا همومها لأسرى عنها فقلت : ولكن كيف حال أخيك ؟ فأغمضت جفنيها وقالت قد جاء بخير ولكنه عاد من الغرباء . قلت وأنا أتكلف الضحك : وهل كنت تظنين أنه سيعود كما سافر ؟ألا تعلمين ان المكث فى بلاد كهذه البلاد وخاصة فرنسا بلد المدنية الماجنة والنور الخاطف كفيل بتغيير خلق شعب كامل لا رجل مريض ؟ الرجل هناك يجنح الى اللهو لأن الحرية أو

ما يسمونها كذلك مطلوقة العنان ومن يدرى ياصديقتي فقد يكون هذا المرح هو باعث شقائه ، ليكن اليوم غريبا وغدا يستأنس ثم تألفون طباعه الجديدة . فقاطعتني : إنك لا تفهمين ما أعني . قلت ، بل أفهم ، لقد تعودت منه الهدوء والجنوح الي العزلة واليوم جاءكم وبه جنوح الى الدعابة واللهو فقالت : المهم أن تأتى لترى بنفسك فأن الحقيقة مرة لا أقوى على إيضاحها . قلت : إنك تقيمين من أسوار جمودكم قانونا لا حق لك فيه أو تريدينه عابساً مكفهراً ؟ لا لا إنه رجل ولا بد له من الترفيه عن نفسه الكليمة ولا يريح النفس غير الدعابة واللهو ؛ ولست أعنى به اللهو المجرم الطائش بل أعنى به المرح البرىء فى غير استهتار أو عدم مبالاة ، قالت لست فى حاجة إلى فلسفتك الساعة وقومى معى لأن والدتى مريضة وقد جاء ابنها بصاعقة أخشى أن تفقد نفسها معها . بعد ساعة كنا فى منزلها وقد هالنى سكون المنزل على غير ما كنت آمل ثم قادتنى الصديقة إلى الوالدة فوجدتها شبه

مريضة وإن كانت تغالط نفسها وتحاول أن تصارع همها ، وبعد أن استقر بي المقام جاء الأخ باسما متهللا ، لقيني بأروع مما ظننت ، فتوارت رغبتي خلف عواطفي ولم أبخل عليه بتحية خالصة ، أما هو فلم يجب ، ولعله اكتفي بتقبيل يدى فى سكون ، قلت فى نفسى : هذه أول ظاهرة غريبة وشئت أن أغالط أخته فقلت بنغم فكه : هذا ميثاق الشفاء أما زلت تذكر وديعتك ؟ فلم يتكلم وحاول إخفاء دمعه فى مآقيه ، ثم قال بصوت كأنه آت من أعماق الوادى : إن أحسن ما أمتاز به هو ذاكرتى قلت : حفظها الله لك وجعلها مستودعا لكل ذكرى طيبة قال : وذاكرتك ؟ قلت : عيبي مركز فيها ولعل الله يوم كون مواهبي ، كونها على ألا ذاكرة ، قال : احمدي الله على ذلك فلو كانت ذاكرتك قوية لكان لك شأن آخر قلت : ومن أدراك ؟ ومر بخاطرى طيف الخطيبة فاستطردت ، يهمنى أن تركز ذاكرتك على الواقع الجميل لتهيب بنفسك دائمًا الي الحياة الوديعة ، وهنا بدأ أمامى

كالطفل يحاول ان يكتم أمراً فى نفسه فتفضحه عيناه ، فأدركت ان هناك أمرا يخفيه ولم يفتح فاه بل انحنى أمامي بخشوع وخرج يجر ساقيه جراً ، والتفت الى الصديقة فوجدتها تحاول إخفاء دموعها فقلت : أتسمحين أن أساير أخاك برهة لأتعرف دخيلة أمره ، فتمالمت وأرخت جفنيها في صمت ثم قالت في لهجة القانطة . لا ياصديقتى ! دعيه يتصرف كما يحلو له ، وفجأة دخل الأخ يتعثر وعيناه ترقبان الأرض وقد ارتسمت على شفتيه صورة ناصلة صفراء ؛ دخل وبجانبه فتاة أجنبية تاهزت الثلاثين من عمرها هادئة المظهر ثقيلة الظل ، ثم وقفت حيالى ولعلها كانت تستطلع الحياة المصرية من عيني بنظرة عميقة فاحصة ، قدمها إلى وبوده لو يتراجع ! وفى مرارة فتح فمه كمن يحاول أن ينطق بحكم الأعدام وقال مشيراً إليها ... زوجتى ، فشملنا جميعا سكون رهيب وكدت أن أفقد إدراكى لولا أن الله أدركنى بقوة من لدنه ؛ فاغتصبت بسمة وواريت عواطفى وقلت فى هدوء

أهنئوها ، فغمغم بصوت مرتجف يحفه العجب : وحدها ؟ فصمت برهة على مضض ، ثم قلت بلهجة الحزن والأسف المكبوح ... أجل وحدها ... أهنئوها وأعزيك ، فغمغم أهذه تهنئتك ؟ قلت : تهنئة يحفها العزاء ، هل سمعت أو رأيت فرحاً نهايته قاتمة ، هناءة نفسك ربما .. وعزاء شعب

وظل نظرى عالقاً به والشرر يتطاير منه ؛ ونظرت الى الفتاة وكانت لا تعرف العربية وكلتها بالفرنسية كلمة موجزة تشرفنا ، وانحنيت فى تهكم لا فى إجلال ولكنها ردت التحية فى برود فخشيت ان ينالني من فرط الجزع ما يشوه جمال أحلامهم فاختطفت نفسي من بينهم وخرجت مسرعة وأنا اعتقد انني سأغدو قريبا حطاماً فى حطام ، فكل خواطرى كانت تحوم حول تصاريف القدر ، وخضوع الأنسان لحكم القضاء وتساءلت أتري ذلك التصرف قدر عليه ان يكون ضحيته ام تلك مشيئته التى اختارها لنفسه ؟

قلت لنفسى عندما هدأت خواطري:وما عاقبة هذا الجنوح

الأليم . فى غير حق مشروع وما لى أنا وغيرى ؟ وهل خلت نفسى من الهم حتى أضيف اليها هماً جديداً . وتنفست الصعداء وقالت : يالك من شاعرة !

وهالني أن تهيني نفسي فوقفت أمامها قائلة : أنا للرحمة خلقت ، وإن مهمتى تخفيف البؤس ، ورعاية الشقى ؛ بيد اليمنى أمسح دموع المحزونين ، وباليسرى أفتح بصيرة المتقاعدين ... أنا صديقة كل منكود الحظ ، أنا خلقت للحياة ولم أخلق لنفسي .

واطمأننت لروحى وعادت الى مدامع الأسى ، ومر بخاطرى طيف الخطيبة المغبونة ؛ آه ! لو أنها كانت فتاة طيش ودعابة ما جزعت لها ، فالرجال ينشدون هاته الغواني فى كل مكان .. ولكنها فتاة قلب فوا أسفاه ! لقد استودعت الله آمالها وأودعت فى ذمة الشيطان مصيرها ....!

يا إلهى لم خلقت الرجاء فى قلب المرأة ، وخلقت صولة الفناء ليثمر الخيبة والمرارة ؟ ! لم خلقت لها طريق الحرية

وسيرتها في طريق العبودية ؟ لم خلقت للرجل جناحين طويلين يحلق بهما في الفضاء كما يحب ويهوى على حين خلقت المرأة بجناح كسير فأقعدها عن الهوى الطليق ؟ لم وضعت في حنجرتها أوتار النغم الطروب ، وقيدت فاها بالنغم الحزين ؟ لم علمتها العطف وقيدتها بالضعف ؟

رحماك يارب فقد خلقتها قوية رحيمة شفوقة محبة !

ـ لست أكفر ـ ولكن النظم والتقاليد غير المشروعة . علمتها الضعف والاستكانة ؛ والتردد والمواربة ، كما قيدتها بأغلال عتيدة ، وكل من حطمت أغلالها على ضوء الحق والواجب كانت في شرعهم مجرمة أثيمة ! لست أريد أن تستهتر المرأة وتلهو ، ولست أرمى أن تتلاعب بعطفها وحبها وتقذف بهما كما يرجو هواها ، ولكني أريدها ذات كبرياء وأنفة ، وأن تصون قلبها ولا تفتحه إلا لمن يقيم له صلاة التعبد والأيمان ، ويعرف أن الصلاة فيه صلاة للخالق .

ولست أريد أن تماثل الرجل قوة أو تزاحمه في ميدان

عمله الخارجي لغير غاية لاجئة بل أريد لها الحياة الكاملة السامية في بيتها إن كانت أما ، والعمل الشريف لمنفعة وطنها إن دعتها الرغبة الي العمل . أريد لها السمو المطلق فتكيف جمالها بروعة روحها ، وتجمل روحها بسحر تثقيفها وتوسع من ثقافتها بدوام دراستها عن طريق الفكر الخصب والاطلاع الواسع ، وبالجملة فأني أريدها مرتفعة بنفسها إلى أسمى مراتب الجمال ، محلقة بروحها في سماوات الكمال ؛ لتشعر الرجل الحياة الحقة في كنف بيتها المنظم الجميل ؛ وتشعر العالم بقدرة المرأة وقوتها على الأنشاء والتعمير !

***

٦

حدثت في منزلنا حركة غير عادية وبعد التقصي علمت أن هناك سكاناً حديثين فدفعني حب الاستطلاع الى معرفة ما يمكن معرفته عنهم . ومرت بعض الأيام دون أن أعرف غير اسم الزوج ، أما اسم زوجه فلم أعرفه ، وبينما أنا صاعدة على الدرج عصر يوم حانت مني التفاتة ، فأذا بفتاة قد عرفتها من قبل ، هي بعينها الخطيبة . تحيرت في أمرها أتكون زائرة أم صاحبة المسكن الجديد ؟ وصافحتها فلقيتني لقاء حاراً لا شائبة فيه . وفرحت كثيراً حينما علمت أننا نقطن منزلا واحداً وتزاورنا بعد ذلك وتأكدت بيننا عرى الصداقة ، وسرني أنها سعيدة في زواجها موفقة في حياتها وأن زوجها الطبيب يحبها حباً لانهاية له ، ويعمل ليلا ونهاراً على راحتها وإسعادها وهو كما تعترف طيب القلب صافي النفس له مكانة بين قومه ، وأظنها نسيت ماضيها فلم تحدثني عنه كما

حاولت أنا أيضا تناسيه ، وكم أشعر بالسعادة الحقة عند ما أراها في بيتها مقبلة مدبرة ، راضية عن دنياها ، تسعى جهدها في سعادة زوجها وتخلص له الحب ، وتبادله الوفاء . لقد أدركت من سلوكها أن المرأة إذا واتاها الحظ برجل يحبها ويعمل على إسعادها أهاب بها ذلك للرضا النفسي فتمنحه وداً بود واخلاصا بأخلاص ، وتخلق له من دنياه المحدودة دنيا من السعادة لا نهاية لها ، وحمدت الله الذي جعل آخرة دنياها أفضل وأجمل من الأولى ، ومرت الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض ، وفي صبيحة يوم دخلت على الخادم معلنة قدوم صديقتي القاطنة بالمنزل فراعني اصفرار وجهها وفاجأتني - وقد أنساها الحزن على ما أظن السلام على - قائلة : هل جاءتك ؟ تعني الصديقة شقيقة خطيبها بالأمس ، قلت وقد تملكني الاضطراب الجازع لم أرها منذ أسابيع ، فاستوت واقفة والدموع تنهال على وجهها في غير تمهل ثم فرت من أمامي وأخذت أسأل نفسي ترى أين ذهبت ؟ لقد ساقها الحب الى ... بلاريب ! ولكنه

تصرف شائن . وتملكني الهم والقلق طوال اليوم ، وفي المساء ذهبت إليهم مستعلمة عنها ، فعرفت أنها لم تعد ، وأنها خرجت في الصباح وهم نيام ، على غير سابق إشارة أو إنذار .

ودخل على الأخ وأنا أحادث الوالدة فوقف أمامي في هدوء ؛ وهذه أول مرة ألقاه فيها بعد زواجه . وما كاد نظري يقع عليه حتي وارى نظراته خلف بسمته ، واستويت واقفة وقد تملكني شعور غامض حزين ، وبدا لي أنه لايمتاز عن المجرم بشيء ، فعليه تقع جريمة الأخت ، إن كان ثمت جريمة ! ولكن الوالدة حملتني برجائها على المكوث قليلا لأنها تكاد تجن من هول الصدمة ، أما هو فانثني أمامي وقال بصوت الثائر : في أقرب وقت سأعرف مقر وجودها ، وستنال عقاب هذا المسلك المعوج . قلت وأنا أوارى همي : ولكنها لا تستحق ! فزاد غضبه وقال : أتقرين هذه الخطيئة ؟ قلت : وهل تظن أنها خطيئة ؟ قال : نعم ، قلت : اهدأ أولا ، ثم فكر في علة تصرفها ؛ قال : لاسبيل لغفران جنايتها ! قلت

إنها لم تجن ذنباً ، كل ما فعلته أنها تنتقم لنفسها قال : تنتقم ؟ ياللعجب ! وممن ؟ قلت : يبدو لى أنك أسأت إليها قال : أنا ..؟ محال ! قد حافظت على كرامتها وشرفها . قلت : إنها ليست من الطيش حتى تعجز عن صيانتهما فقد ناهزت العشرين وفي مقدورها أن تكيف حياتها عن طريق عقلها وبدت الوالدة غير مرتاحة لهذا الحوار ، لما كان يبدو من التأثر على وجهها الحزين وكأنها أرادت ان تضع حدا لحديثنا فقالت : قم فاذهب الى بعض أقاربنا أو صواحبها ، فمسالك أن تلتقي بها هناك ، فضحك الأخ فى تهكم لاذع ثم قال : إنها ليست هناك ، إنها عند فلان بلا شك ، على أنى بعد ساعة سأعرف مقرها وأنا هنا لم أبرح مكانى فاطمئنى ، ولكن أتستطيع الأم أن يطمئن قلبها لهذا الكلام ؟ قلت قد فهمت من قولك أن هناك صلة بينها وبين فلان هذا ، فأطرق برأسه وأشار بعينيه ؛ أى نعم ! فاستطردت : أوكنت تعلم ؟ قال : بل طلب يدها فرفضت ، قلت : ولم رفضت ؟

لأنه يلعب بقلوب العذارى ! قلت : ولكنك تزوجت وصلح أمرك بعد الزواج فيما أظن ، فنظر إلى نظرة خاطفة ، وقال: ماذا تعنين ؟ قلت : أعني أنه على طرازك ، والذي أباح لك الزواج ؛ أباحه لغيرك فقال فى تهكم : إن حمية الدفاع عن ابنة جنسك تشوه جلال الحق . قلت : أنا ـ ها ها ها ها ..! أنا ؟ قد أكون .... أو تعرف الحق ؟... لو أنك تعرفه لما عودت نفسك ظلم غيرك وأهلك ؛ يا إله السماء . أي دين من الأديان يحرم الزواج العاطفي ، ثم ازداد صوتي صرامة وقوة وأردفت : ياللظلم ! وهب الله الوالدين سلاح الرعاية فاستبدلاه بسلاح التقييد ، أو ليست الحياة الزوجية إلا حياة ائتلاف وتعاون ، فلم ترغم المرأة على هذا الائتلاف ، وكيف ينتظر منها سعادة وهى تشقى تحت نير أحزانها وحرمانها ، كيف تطالبها بالعدل وهى تسام العسف ، وكيف تمنحها النور وهي تسير فى الظلام!

من لى بمن يسن تشريعاً إجبارياً يهيب فيه بالآباء إلى

رعاية عواطف بناتهن واحترامه ميولهن ؟ نعم يجب أن يمر قلب المرأة بالحرية . ليهنأ الرجل بالحياة الجليلة ؛ وإن امرأة واحدة مظلومة لتجر على البلاد ذيل الشقاء ، فامنحوا للمرأة الأنصاف والرحمة تعطيكم الحياة مفترة عن أعذب البسمات ! وهنا بلغ منى الألم مبلغاً ، فصمت قليلا على حين جلس هو مطأطىء الرأس تبدو عليه الكآبة الخرساء . وشئت أن أزيد همه فاستطردت : والله لو استطاعت المرأة أن تنزل على الرجل غضب السماء لما تهاونت . فاعتدل ، وبصوت متلعثم قال : ولكنها من حسن الحظ رحيمة ..! قلت : وهذا عيبها ! أجل عيب المرأة فى رحمتها وعطفها وحبها الجم ، فازداد اصفرار وجهه وقال بصوت مرتجف : لو كانت المرأة كذلك ؛ لكانت الحياة جنة خلد للمخلصين ولكنها والأسفاه لا ترعى حرمة الحب ، بل هى تستغل عاطفة الرجل ووفاءه لتستعبده ! قلت : إنك تتكلم بلسان رجل يلعب بقلوب العذارى على حد تعبيرك ، وهذا الرجل يجب أن تقيم

المرأة سداً منيعاً بينها وبينه ، هذا أنت ! أو تستحق حب امرأة ؟ لو كان قلبك يخفق بحرارة لعرفت كيف تحترم العاطفة على الأقل ، قال : لعل صرامة الحب علمتنى كيف أتحداه ! قلت : ولكن الحمامة الوديعة جبلت على الخضوع لحكم العاطفة مهما أساءت اليها ، أما النسر القوى فسعادته هى الكفاح فى سبيل مالا طائل وراءه ، ويا ليته كفاح يمت إلى الفضيلة بسبب !

لقد نسيت حزن الوالدة ولم ينبهنى إلا ما أصابها من إغماء فقطعت الحديث وتحولت اليها أرفه عنها ثم استأذنت على نية أن أذهب ، لأبحث عن الصديقة عند صواحبها ، وذهبت الى كل من تعرفها كزائرة ، محاولة أن أعرف مقرها ، ومرت الأيام تتبع الأيام والصديقة تتقاذفها دنيا مجهولة ، وأسرتها فى أشد حالات الألم والحزن والقلق ، وأخيرا وصلتهم رسالة منها تنبئهم أنها عند خالة لها فى بلد بعيد ، كما وصلتهم رسالة من خالتها تخبرهم فيها بمرض الفتاة ، وبضرورة الحضور .

وبعد أن سافرت الأم لحق بها الأبن ، وكان هناك حبيب الفتاة فقام بينه وبين الأخ شبه عراك تفاقم أدى فى النهاية الى الخضوع لمشيئة الأخت ، وعادت معهم وتم زواجها ، وذهبت يوما إليها لأهنئها ، فلقيتها على أحسن صورة أرجوها لها ، كما وجدتها فرحة الى أقصى حدود الفرح ، تود لو يفيض سرورها على العالم بأسره ، ولما خلوت بها ، حدثتنى عن سعادتها وآمالها فلمحت ظاهرة الحلم تسيطر عليها حتي أنستها الواقع الرهيب واقع الحياة المنزلية الخطرة ، ولم أر غضاضة فى مصارحتها بما فى نفسى فقلت : ياعزيزتى يهمنى أن تقفي حياتك على إدراك الواقع فتفرقى بين متعة الخيال ، وحقيقة الواقع ، فأنت ترين أن طبيعة الزوج أو الزوجة ، غير طبيعة الحبيب أو الحبيبة فالأول يكيف كل شيء بعقله والثانى يكيفه بقلبه ، وشتان ما بين العقل والقلب ، ومهمتك الآن تركيز أخيلتك على محط عقلك ، لتعرفى كيف تصونين نفسك ، واذكرى دائما أنك قد ولدت من جديد ، فمن الخير أن تأخذي من الحياة بقدر ما

يسمح به ذهنك الكبير ، وحاولى أن تكوني لزوجك كما يجب أن تكوني له ، واسعى جهدك فى استبقائه بجوارك ، راضية عن نفسه وعنك على مدى الأيام ، ولا بد أن تخلقي كل يوم في بيتك منهاجا جديداً يشعره بتجديد الحياة ، فأنها لعملية تحتاج لمهارة ؛ ثم حاولى الأشراف دائما على مهامه بنفسك ، ليشعر بالسعادة الحقة بفضلك ، وحاذرى أن تفتحى قلبك للشك ، إذا بدا منه ما يريبك فى حياته الخارجية ؛ فما فيها من متاعب وعنت كاف لأرهاقه ، فلا تضيفى الى همومه هماً ، أو الي متاعبه تعباً ، وانظرى إليه دائما بعين صافية لا يشوبها ملل ولا سأم ، فذلك أدعى الى إشباع قلبك وإسعاده ووطنى نفسك على أن تحرصى على سعادته وهناءته ، وثق أن هناك فارقا بين اليوم والغد : إن دنيا اليوم هى دنيا الأحلام والخيال ، ودنيا الغد هى دنيا تحقيق الآمال . ثم حاذرى أن تخلطى بين تصرفك الطائش وذهنك الناضج ، فاسبلى الستار على ما فعلت حتي ينساه زوجك ، فقد يذكره عندما

يفيق العقل من النشوة ؛ وقد يعظم الأمر في ناظريه ، فيدرك سوء تصرفك فيحز ذلك في نفسه .

ولقد كنت أعلم ما قام بسبب هذا الزواج القهرى ، من النفور المكبوح بين زوجها وشقيقها ، فخشيت أن يؤثر ذلك - لو دام - في علاقتها بزوجها ، فقلت : يجب أن تذكري أن عاطفة الرجل تختلف باختلاف تصرف المرأة ، فانتهزي دائما أوقات الصفو بينك وبين زوجك وشقيقك ، واعملى على التقريب بين وجهتى نظريهما ما استطعت ، مستعينة على ذلك بما كان بينهما في الماضى من أواصر المحبة والأخاء ، فعلى ذلك تشيدين صرح سعادتك الزوجية ، وتجبرين كليهما على زيادة محتبك واحترامك ؛ وبهذا تضربين أحسن الأمثال على يقظة المرأة المصرية ، ولباقتها فى تأدية رسالتها ، رسالة الألفة والتعمير والأنشاء . وكأن هذه الصراحة لمست منها موضع الداء ، فتململت ثم قالت : لقد حاولت فى ذلك جهدى ، واستعنت بكل من تحسن الاستعانة

بهم ؛ حتي لأوشكت أن أفشل ! قلت : تفشلين ؟ لا لا ! أرجو ألا تسمعيني هذه الكلمة الخائرة مرة أخري ، فالمرأة التي تهز المهد بيمينها ؛ لا تزال تهز العالم بيسارها ، يجب أن تعملي ! يجب أن تعملي !

عرفت الصديقة كيف تهيء منزلها الجديد ليظل أبداً عامراً وعملت على تحقيق آمال زوجها وأشعرته السعادة الحقة والنعيم المقيم . أما هو فقد جعلها خاتمة الحبيبات كما جعل الله محمداً خاتم المرسلين . واتخذ منها الأخت والابنة والصديقة والزوجة والحبيبة ، ونسى دنياه بها ، وراح يهيء لها من لدنه عرشاً وطيداً من الراحة الأبدية تتكيء عليه . وقامت بدورها في أشباع رغباته المعنوية والحسية وأثبتت له أن المرأة بأخلاصها وتضحيتها كفيلة بأن تهيء لزوجها دنيا مليئة بالنعيم والغبطة والسرور !

وما دامت الميول بين الشريكين موحدة ، والعواطف متبادلة والرغبات متقاربة ، فالسعادة محققة . ولقد زرتها يوماً

فأحسست أن السعادة تسرى منها الي ، وشعرت أن ضوء الهناءة يشمل بيتها حتى صورتها ؛ رأيتها ازدادت فتنة وسحرا وجمالا ، واكتمال أنوثة . ولعل ذلك من فرط عنايتها بنفسها وصحتها وشئونها ، مرضاة لزوجها .

وفجأة جاءها شقيقها على غير موعد لزيارتها ، وكانت الأيام قد مسحت من ذاكرتى صورة الأيام الخوالى ؛ فلقيته كغريب لا عهد لي به ، ولا يهمنى أمره ؛ ولا يعنينى شأنه ولكن شحوب وجهه ، ونظراته الساهمة ، وصوته الخفيض كل أولئك شف عن حزن مكبوت ... ولما تهيأت للانصراف استوقفني قائلا : لى معك حديث . قلت وكأنه لا يعنيني : أمسيت بالخير ياصديقى ، ولكنها قالت : أخى يدعوك ! قلت فى عجب : أنا ؟ أنه يعنيك . قال : أعنى حضرتك . قلت : « أفندم » !

فأجلستني الصديقة فى رفق ، ثم انصرفت لبعض شأنها على ما أظن ، وشئت أن ألحق بها ، فاستوقفنى وقال :

أتذكرين الماضى ؟ قلت : لا أذكر غير ساعتى ، قال فى نغم التوسل : ولكنى أرجوك ألا تستسلمى لخيالك . قلت عندما تخونني الذاكرة ينمو معها الخيال والفكر وكل شيء قال : دعينى إذاً أذكرك . قلت : ليس هناك ما يدعو ، وهممت بالانصراف ، إلا أن الأخت دخلت وحملتنى على الجلوس فاستطرد : أنت تعرفين أنى سافرت بغير قلب وقد سلبتنيه ، ولعل الله شاء إنقاذى بعد أن فتح لى الموت ذراعيه ، فأرسل لى هاته الفتاة ترعانى وتخدمني ، ولما كنت واثقا من أن المنية سوف تواريني ، لم أبخل عليها بشبه ود جزاء فضلها ، وشاء الله أن أعافى ، وشاءت هى أن تحبنى . وقضى القضاء أن أتزوجها !

صدقيني لست أدرى كيف حدث ذلك ، وكأنى كنت في غفلة عميقة ؛ صحوت على أثرها فوجدتنى فقدتك فبكيت فراقك وسوء طالعى . إنها رحيمة لست أنكر ، فقد سهرت علي مريضا ، ورعتنى سقيما ، فأنت ترين أنى مدين لها بحياتى

كان يتحدث بينما كنت أداعب منديلي آنا ، وحقيبة يدى آنا آخر ؛ وكأني عنه لاهية . إلا أن كلماته كانت تحز فى سمعى ! وبعد صمت قلت : وماذا يهمنى أنا من هذا الحديث ؟ فقال بصوت حزين : أريد أن يهمك ؛ أعني أريد أن تفكرى بفكرى ، فقد عانيت من الهم ما لا قبل لى على احتماله ! قلت في سخرية : ولم ، وتلك مشيئتك ورغبتك ، وكيف تتألم من تصرفك ؟ قال : لا تضيفى الي همومي المتكاثرة هم قسوتك ، فقاطعته الأخت : رفه عن نفسك فلا شك أن الله سيجازيك خيراً ، فقد أحسنت بتخليك عنها . فذعرت وقلت تخلى عنها ؟ كيف حدث ذلك ولم ومتي ؟ فقال : نعم منذ أسبوع ، وقد غادرت هاته البلاد ، قلت وقد ملكنى الحزن : يالظلمك ! قد تحملت المسكينة فى سبيل تمريضك كما تقول كل شيء ؛ فهل هذا جزاء الأحسان ، فأجاب بصوت مذبوح : لقد شوهت كرامتى ، وهتكت شرفي ، وتلاعبت بعواطفى ، وقضت على مالى ، وجعلت اسمى مضغة الأفواه

وقد أحزنني نبؤه ، وإن كنت تظاهرت بالرضا ، وقلت : هذا نتيجة تصرفك بلا مراء ، قال : الآن أدركت !

قلت : لقد تعودت من الفتاة المصرية الجمود ! فليس بعجيب أن تمنى من الغربية بالأباحية التي ساقتها لك عن طريق الرعاية والحب ، وانه لحب زائف ، ابتدعته وحاكته بمهارة ، وفاتك أنها ما فضلتك على أبناء جنسها لهوا ولعبا ! ولم لا تفضلك وهي تأخذ من المال ما ترجو ، وتلهو كما يحلو وتتسيطر عليك وعلى أمثالك تسيطراً لا حد له ، حتى إذا عرفت أن يدك صدأت وان جيبك قد خوي ، لفظتك واجتوتك ، وأنكرتك وأشقتك ، هذا إذا لم تتركك مضرجا بدمك : والآن هل عرفت كيف تفرق بين حب الفتاة المصرية والغربية ؟ إن الأولى تحب الرجل لذاته . والثانية تحبه لمادته ! إن الأولى تحبك زوجا . فقيراً أو غنياً ، وسيما أو دميما . أما الثانية فتتعشقك غنياً وسيما . انها تحب فيك رغبتها وشهوتها ، وشتان ما بين العاطفتين ، لقد تقدم إليك

الحب الأول باسطاً إليك أجنحة من السعادة عن طريق فتاة مصرية طاهرة بريئة ، فغدرت بها دون ذنب ، فشاء القدر أن يجازيك شراً بشر ، وغدراً بغدر !

ولم يدعني أتم قولي ، بل قاطعني قائلا : لو رأيت الفتاة الأجنبية في بلادها كيف تدير بيتها ، وتربي أولادها لعجبت هي تجعل من بيتها فردوساً مليئا بالمتع مع الاقتصاد الوفير ، وذلك عكس الفتاة المصرية التي تسرف في مالها ومال زوجها لتشبع رغباتها ، ومع ذلك لا توفق في إدارة بيتها كما تعجز عن تركيز حياتها وذلك هو ما خدعني وأغراني بهذا الزواج ، ومع ما نالني فيه ، فأني لا أنكر حسن تدبير المرأة الغربية لبيتها

فتملكني الغضب وآلمني اعترافه فقلت : أتريدون لأنفسكم السعادة على أنقاض وطنكم المذبوح أيها الأثرون ؟ وهب الفتاة المصرية كما تقول سيئة التدبير ، أفعجزتم أو عجزنا عن الأصلاح ؟ إن المرأة الغربية تعلمت الاقتصاد ، وحسن التدبير ، عن طريق أبيها وأخيها ، فالرجل هناك لا

يقامر بماله في سبيل الملاهى والمراقص ، ولا يضحى بعصارة مواهبه قرباناً على مذبح الأعراق ، ولهذا تنشأ الفتاة الغربية نشأة اقتصادية منذ الصغر !

وحسب الرجل المصرى فخراً أن يضحى بشطر من وقته في سبيل إصلاحها ، فمنه وحدة تنتظر المغامرة فى سبيل الأنقاذ ، ثم هبك تزوجت فتاة جاهلة ساذجة ، أو ليس فى مقدورك ترويضها على ما تحب وتهوى ؟ وهبها كانت متعجرفة ؛ أفلا يكفي قليل من حكمة الرجل ، ليكفكف من غطرستها ، ويفل من حدتها ؟

ألا فلتعلم أن شعوركم باليأس من مستقبل الفتاة المصرية وإصلاحها لا يستند على شىء ، وأن هذا الشعور الذى يغرى بالنوم عن الأخذ بيد الفتاة الى حيث مركزها الصحيح من المجتمع ، ليسىء الى وطنكم ، ويشوه من جلال جهادكم ، وإنه لسوف يعطى عنكم لأبنائكم ، أسوأ الأمثال ، على أنكم كنتم تميلون الى الدعة والخمول ، ولا تجشمون أنفسكم عناء !

وإن الفتاة المصرية ، طالما ناشدتكم ؛ أن تدفعوا بها فى سبيل النور ؛ فقذفتم بها فى مجاهل الظلام ؛ وأن تعلموها كيف تسمو وترقى فى سماء الحيـاة ، فقصصتم جناحيها وأسففتم بها الى الحضيض !!

ولست أدرى الى متي تسومون المرأة العسف ، وعلى شفاهكم بسمات الدعابة ؟ لا أعرف حياة مشوهة أضل من حياتكم ! لقد تأففتم من المرأة السجينة . وناديتم بالحرية وطالبتموها بالثقافة العامية فلبت نداءكم ؛ ونالت من التعليم والثقافة والفنون حظا تغبط عليه ؛ ولكن سرعان ما زاغت أبصاركم في الفضاء تحلقون بأجنحة الغرور الكاذب ، والوهم الفاسد ، وبقيت العذارى فى طريق الحيـاة حيارى !..

ياسبحان الله ، ما بال صوتكم لا يكاد يبلغ حناجركم حتي يرتد في جنبـات ضمائركم حائراً ؟ وبينـا أنا أندفق فى ثورة المؤمن قاطعنى قائلا : والآن ..؟

قلت : والآن لهف نفسى على « الطائر الحائر » يتردى

بين المعاطب والمخاطر ؟! إن الريح تعصف ولا تحاذر ، والغصن يتكسر دون كاسر ...!!

لهف نفسى على العذارى ، يتعذبن تحت نير الظنون أسارى رموهن بالشوائب جهارا ، فاتخذن الحرمان لهن شعارا ؟! قال : ولكنك ، قلت : ناقمة عليك وعلى الرجال جميعا من أجلك ! قال : ولكنك أخت عطف ، قلت : على المغبونين لا الغابنين ! قال : وأنا منهم .

فضحكت في تهكم مرير ، وقلت فى عجب : أنت ؟ إنك لقوي جائر ، ولكنك وأسفاه لا تخجل من أن تصف نفسك بما ليس فيك ، طمعاً فى الوصول إلى غايتك ، ثم شعرت بالثورة تكاد تعصف بكياني ، والأسى يوشك أن يفعم نفسى ، فاستويت واقفة ، حيث ودعت الأخت وألقيت عليه تحية عجلى ؛ كأن لم يكن بيننا تعارف من قبل !

*
* *

ومرت الأيام سراعا ، وحالت شواغلى دون زيارة الصديقة وانتقلت أسرتنا الى بلد آخر ، فانقطعت عني أخبار الصديقة وشقيقها ، وأسدلت أنا أيضا الستار على هاته القصة ، فلقد سئمت نفسى مناظرها المتناقضة ؛ وحوادثها المثيرة .

ولقد مر على عامان ، وأنا ساكنة الي دنياي ، راضية عنها ، لا يشغلنى من هم هذه الحياة إلا هم نفسى ، حتى اضطرنى الحر اللافح ، الي النزوح الى المصيف ، ترويحاً للنفس وطلبا للاستجمام والحياة فى المصيف غيرها فى كل مكان إنها حياة فرحة مرحة ، يكاد يفضل اليوم فيها عاماً بما يتوالى على مسرحه من كثرة المرائى وتباينها وشذوذها ، هذا الشذوذ الذى ينجم عن اختلاط الطبقات ؛ واجتماع المتناقضات ،

ولقد وقفت على الشاطىء فى أمسية من أمسيات الصيف الرائعة ، أشاهد الشمس وهى تهدف الى الماء ملقية بنفسها ، بين أحضان إله البحر ، الذى يودعها فى الصباح ليلقاها فى المساء . كما وقفت أتأمل الأمواج . تتجمع من بعيد

كالجبال . ثم تترامى على أعطاف الصخور ، فأذا هى مستحيلة الى رشاش سنى . وبينا أنا أشبه فى نفسى فعل الأمواج مع الصخور ؛ بالأم تغضب على ابنها ، ثم تهم لتعنفه أو تؤذيه فلا تكاد تقترب منه حتى تستحيل هذه الغضبة . الى رشاش من الرحمة والحنان . ووميض من الأشراق والابتسام . أجل بينا أنا مأخوذة بروعة البحر ، وجلال مشاهده : طرقت أذناى عن قرب ضحكة ساخرة ، يوقعها صاحبها على أوتار الخلاعة والاستهتار ، فالتفت ورائى ، فأذا بى أواجه فتاة جملتها يد الصناعة ، تسير الهوينى بجانب رجل هزيل الجسم شاحب الوجه . لقد عرفته .. إنه « الطائر الحائر » صديق الأمس . واستدرت بوجهى ثانية الى البحر ، كأنى لا أعرفه ولكنه عرفنى كما بدالى من نظراته . ولعله خجل أن يحدثنى ومعه رفيقته . وحمدت الله على أن تعود الاعتداد بالنفس ، الا أنى لم اكد انتهى من وقفتى ، وأخطو الى الأمام منصرفة حتى طلع على ذلك « الطائر الحائر » منفرداً ، وبادرنى بقوله

أأنت هنا ؟ فأجبت فى جفوة : نعم ، ثم أسرعت الخطا ، وتركته جانبا !

وفى مساء اليوم الثانى ، عدت الى مكانى على الشاطىء ، وبينا أنا مستغرقة فى تأملاتى وأحلامي ، لقيتنى أخته لقاء حاراً ، وأفهمتنى أنها علمت بوجودى من أخيها ، وأنها قد بحثت عنى هنا طويلا ، وبعد أن خضنا فى ألوان من الحديث وضروب من الذكريات ، حدثتنى فى مرارة عما آل اليه حال أخيها من سوء ، وأن يأسه وبؤسه ، قد ملآ فراغ قلبه ، وأنه قد برم بالحياة والعمل ، كما انقلب مستهتراً ، استهتار من يود بعثرة وقته على أية صورة ! كانت تتكلم من أعماق قلبها ، والدموع تطفر فى غير إمهال ، فحزنت حقا لحزنها وتصورت مصير شقيقها رهيبا !

يالله إن نكبة المجتمع الخلقية ، تتولد من قنوط شبابها إن الشباب لا يسف ، ولا يستسلم لنزوات نفسه الأمارة الا اذا جفت دونه مناهل الخير !

إنه مرض بلا مراء ، ولكن مصدره سوء تصرف الشاب وجنوحه الى الحيرة العاطفية ، والقلق الوجداني ، فلو أنصف الشاب نفسه ، لركز خواطره وأحلامه على محط الواقع ، وحكم قلبه وعقله معاً فى تكييف حياته المستقبلة ، ولا سبيل إلى سعادة الرجل إلا إذا تسامي عن الرغبات الجامحة . ولو علم أنه ليس وراء العبث العاطفي ، إلا كل شقاء وفقدان للرجولة العزيزة ، لكف عن هذا الأسفاف !

وشاء ذلك الشقي إن ينتقم من المجتمع ، الذى قوض صرح سعادته ، وأتى على آماله ، وأصابه فى صحته وماله . وكثيراً ما يدفع الأخفاق فى الحياة الأشقياء الى الكنود والتمرد ـ فراح ينشر على صفحات بعض المجلات كلمات هى عصارة ذهن خرب ، لعبت على مسرحه أباطيل عمر طويل وظل يكتب عاصفا بالأنوثة ، هاتكا حرمتها ، مشوها كرامتها ، معتقداً أنها سبب هذا الانحلال الخلقي ، طالبا من المجتمع ، أن يبتدع شريعة تجيز مساواتها بالرجل فى كل

شيء حتى يسرى عليها العقـاب ، إذا عصفت بقلب ، أو أشقت رجلا عن طريق إغراء كذوب أو خداع مرغوب !

قد يكون لهذا الشقى العذر فيما ذهب اليه من آراء غريبة ، لأن المرأة هى التي قذفت به من حالق فى هذا الأتون المستعر ، وقد لا يكون له أى عذر ، لأنه لم يعرف كيف يوجه عاطفته ، كما ترجو الأوضاع الصحيحة ، ولم يدر كيف يمخر بسفينه فى عباب الحياة !

لقد ظل الطائر يسف تارة ، ويحلق أخرى ، متنقلا من فنن إلى فنن ، بين وهاد الحياة ونجادها ، حزنها وسهلها وستمضى سنوه ، وتعبره موجة الأيام ، وهو كما هو « الطائر الحائر » الذى يضرب فى مهمه هاته الحياة بجناحين خفاقين حتى يشرف على الغاية ويبلغ النهايه ، فيلقى عصاه ويستريح !

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٢	مزهرا	مزهوا
٦	٩	وطلبت أن	وطلبت منها أن
٧	٣	مضجعة	مضطجعة
٢٢	١٠	قد تظهر	قد تطهر
٢٧	٨	ما شاء الله	حاشا لله
٣٦	٣	إذا أميل	إذ أميل
٤٦	٧	لم تنل	قد تنال
٤٧	٧	تتحدد	تتعدد
٥٦	٩	تختلط	تخلط
٦٦	١١	يكون	تكون
٧٤	١٣	ترتفع الى	ترتفع بي الى
٧٤	١٤	ويطأن	ويطمئن
٧٨	١٥	وقفت	وفقت
٨٧	٢	صرامة	صراحة
٩٠	٢	شقائه	شفائه
١١٦	٢	انتفات	انتقلت
١١٤	١٣	اندفق	اتدفق

شكر

نشكر للأخوين النشيطين مصطفى ورياض محمد العادلى صاحبي مطبعة ومكتبة وادى النيل بميت غمر ، ما لقيناه منهم أثناء طبع هذه القصة ، من حسن المعاملة ، والمحافظة على المواعيد ، والعناية بنظافة الطبع ، حتى خرجت القصة فى هذه الحلة القشيبة بفضل مجهودهما المشكور ؟

المؤلفة